الثقافة

بين
المفهوم والمضمون

تأليف

الأستاذ الدكتور

سعيد محمد الصاوي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

المقدمة

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله . وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه .

أمـــا بعـــــــد :-

فإن الحديث عن الثقافة أصبح الشغل الشاغل للناس فى هذا العصر يشتركون فيه على اختلاف مستوياتهم الفكرية والاجتماعية " وتباين لغاتهم " وأجناسهم " وتباعد بلدانهم وأقطارهم .

لذلك أصبحت دراسة موضوع الثقافة من الأهمية بمكان لأن فى دراسة الثقافة مفتاح كرامة النوع الإنسانى . كما أن دراسة الثقافة قد تهدى الإنسانية إلى سبيل الخروج من وهدتها وحيرتها التى أوقعها فيها عصر التقدم الآلى والصناعات الحديثة .

ولا يخفى على أحد أن عالمنا المعاصر يموج بموجات مذهبية شتى . ويذخر بتيارات فكرية مختلفة باختلاف الثقافة التابعة لها . والنابعة منها .

ومما لا شك فيه أن كل ثقافة لها منهجها الخاص بها . وهدفها الساعية نحوه . وأتباعها الدعوان إليها . وأنصارها المدافعون عنها .

ومما لا شك فيه أيضاً : أن الإنسان التابع لثقافة معينة قد تنتابه الحيرة والتردد أمام كثرة الثقافات المختلفة المشارب والنوازع . المتضاربة المناهج والسلوك ...

أى ثقافة من هذه الثقافات صحيح . وأيها فاسد ؟ أيها طيب . وأيها خبيث ؟ أيها أحق بالاتباع . وأيها أحق بالاجتناب ؟ .

وهنا تبدو الحاجة الماسة والضرورة الملحة لبيان الحق من الباطل .

والأصيل من الدخيل . فيتبع من يتبع عن بينة . ويعرض من يعرض عن بينة .

غير أن القضية التى تشغل أذهان الباحثين - وخاصة المسلمين - فى هذا العصر . هى قضية إيجاد التوازن بين الماضى بما يتضمنه من خبرة . وبين الحاضر الذى يحياه الناس ، وبين المستقبل الذى يستطلعون إليه .

وقد أطلق على هذا التوازن المنشود مسميات كثيرة منها :-

قضية التراث والمعاصرة - أو - القديم والجديد - أو الأصالة والحداثة - أو - الأصالة والمعاصرة - ولا شك أن قضية - الأصالة والمعاصرة - قضية لا تزال مطروحة فى الحياة الثقافية منذ أوائل القرن ١٩ م . تقريباً . الذى حمل معه - إضافة إلى المواجهات العسكرية - مواجهة من نوع آخر . إنها المواجهة الحضارية الشاملة التى جاءت بها أوربا إلى بلاد المسلمين حاملة معها نتائج النهضة الأوربية ووسائل تقدمها . إضافة إلى اعتقادها فى أن الحضارة الأوربية وقيمها هى المقياس الوحيد لكل نهوض وتقدم . تؤمن بذلك وتبشر به فى العالم الإسلامى (١) الذى أصيب بهذه الصدمة الحضارية . وعاش بعض أبنائه حالة الانبهار التى أفقدتهم القدرة على التمييز والرؤية الصحيحة . بعد أن توقف العقل المسلم عن الإبداع والعطاء إلى حدٍ ما .

وخرجت الأمة المسلمة من الساحة . وافتقدت الفاعلية الحضارية . وخيم عليها الركود . وسادها مناخ التخلف . وأصبحت القضية المطروحة على العقل المسلم بإلحاح :-

---

(١) بعد أن نقلت عنه كل ما يتصل بالتقدم والرقى فى شتى مجالات الحياة وترجمته إلى لغاتها .

كيف يواجه التحدى ويواكب العصر ؟؟

وأريد أن أحق الحق – قدر استطاعتى – فى هذا البحث المتواضع وأبرز دور الإسلام والمسلمين فى تغذية الفكر البشرى . ومسايرة التطور العلمى . والحضارات العالمية . وأبين ماذا قدم الإسلام والمسلمون من أياد لا تزال الإنسانية تنعم بخيرها . ويقر بفضلها كل منصف . ولا أقصد بذلك أن أعيش فى الماضى تاركاً الحاضر والمستقبل . ولكنى أريد أن أضع أرضاً صلبة يقف عليها المسلم ليبنى حاضره ومستقبله . أريد أن أدرس الماضى لخدمة الحاضر والمستقبل فإذا كان أجدادنا خلاّقين ومبتكرين فما أجدرنا أن نجدد العزم ونسير على مناهجهم . وأن نتمسك بالفكر الإسلامى ليقودنا إلى خيرى الدنيا والآخرة .

ولهذا كان موضوع الثقافة الإسلامية . موضوعاً عالمياً إنسانياً . يمتد على عدة مساحات واسعة مختلفة وتتمثل فى :-

المساحة الزمانية : وتمتد من القرن الإسلامى الأول . أو القرن السابع الميلادى . إلى القرن الحالى إلى ما شاء الله رب العالمين .

المساحة المكانية : تمتد من أقصى العالم إلى أقصاه .

هذا بالإضافة إلى المساحة المعنوية التى تمتد من مجال العقيدة والشريعة إلى مجال الأخلاق والسلوك . ومن مجال الاجتماع والحياة الفردية . إلى مجال السياسة والتشريع . والقانون وعلاقات الشعوب والأمم بعضها ببعض ومن مجال أنماط المدنية الراقية إلى مجال الفن المعمارى والأدب والشعر والذوق الرفيع ...... الخ .

وكل مساحة من هذه المساحات . مساحة واسعة . ذات جوانب عديدة

فسيحة لذا كانت دراسة موضوع الثقافة الإسلامية . وكشف النقاب عنها . وبيان حقيقتها التى تمكن فى أصالتها وإمكانيتها . ومعرفة الأثر الحقيقى لها فى إرساء قواعد الحضارة العلمية الحديثة ضرورة ملحة تستلزم توافر الجهود من الباحثين على اختلاف تخصصاتهم فى الوسط الإسلامى .

وذلك : أولاً - إن هذا الموضوع - بحق - مغرٍ لكل مَنْ يريد أن يربط بين ماضيه وحاضره ومستقبله الثقافى خاصة إذا كان هذا الماضى له جذوره التى لا يمكن أن تنال منها تحديات الزمان والمكان . وذلك لأن تفحص الماضى لكل ثقافة . يترك بصماته دائماً على حاضرها وهو الذى يحدد مكوناتها ومقوماتها الأساسية . ومن ثَمَّ تتقدم نحو مستقبلها وهى موصولة بماضيها وحاضرها . دون انقطاع عن جذورها الأصيلة . وبذلك تتسم بالاستمرارية والحيوية والعطاء .

ثانيا:-

إن المجتمع الإسلامى المعاصر يتعرض لتيارات شديدة من الأفكار والفلسفات التى تفد إليه من خارجه . تريد أن تجتثه من عقائده ، ومبادئه ، وأخلاقه ، كما تريد طمس معالم شخصيته العربية الإسلامية طمساً تاماً . والقضاء على مقومات تلك الشخصية التاريخية . كما تريد فصل المسلمين عن ثقافتهم وثقافة آبائهم وأجدادهم العريقة . وتذويبهم فى الحضارة المعاصرة الوافدة . وإفقادهم الثقة فى ماضيهم . وزعزعة إيمانهم بقدرة آبائهم وأجدادهم الأوائل على العطاء والابتكار الذى لم يشهد العالم له من قبلهم - مثيلاً - .

وإذا فقد المجتمع - أى مجتمع - ثقته فى قدراته أو قدرات آبائه وأجداده

الروحية والنفسية والعقلية . إنما يفقد – ولا شك – أهم مقوم من مقومات حياته ووجوده . ألا وهو شخصيته أو هويته التى تميزه عن غيره من المجتمعات والأمم .

ولكى يظل للمجتمع الإسلامى طابعه الصحيح وشخصيته المستقلة يجب أن يكون قادراً على التمييز والانتقاء فيما يأخذ أو يدع مما يفد إليه من خارجه . دون أن يذوب فيه . أو يفقد ذاتيته وشخصيته . ولا يكون له ذلك . إلا إذا اتضحت عند هذا المجتمع – لا سيما الشباب – الصورة التى رسمها الإسلام الحنيف للحياة بكل مجالاتها :–

المادية والروحية . الكونية والإنسانية . النظرية والعملية .

ثالثاً :

ما يزعمه بعض المعاصرين . من حصر الثقافة فى بعض الأمور : كالكشوف الأثرية من مقابر وحفريات . وكالكتابات الصحفية والأدبية أو القصصية الخيالية . أو الأفلام والمسرحيات .... الخ .

ناسين أو متجاهلين غير ذلك من كتابات وأعمال فى شتى شئون الحياة الإنسانية والكونية . النظرية والعملية .

وكذلك إدعاؤهم بأن المثقفين ما هم إلا رجال الصحافة والإعلام . أو كتاب القصة والأفلام . أو القائمون على أمور المسرح والسينما . أو الباحثون فى الآثار والحفريات متجاهلين غير هؤلاء من رجال لهم ثقلهم فى شتى شئون الحياة الإنسانية والكونية النظرية والعملية . فلا بد من :

تصحيح هذا الزعم . وتوضيح الحقيقة . ووضع الأمور فى نصابها . وضبط مفاهيمها ومسمياتها . حتى يتضح الحق من الباطل . ويتميز الخبيث

من الطيب .

لذلك حاولتُ فى هذا البحث إلقاء الضوء على أهم الأسس التى تبرز حقيقة المفهوم الإسلامى للثقافة . جاعلاً القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وما يدور حولهما من شروح وتفصيلات . أمامى طوال خطوات البحث . إيماناً بأن القرآن الكريم والسنة الشريفة خير هاد فى كل بحث . كما أنهما اشتملا على كل قضايا الإنسان والكون فى هذه الحياة .

وقد جاء هذا البحث تمهيد وتسعة مباحث :-

التمهيد فى علاقة الإسلام بالثقافة الإنسانية .

المبحث الأول : مفهوم الثقافة فى اللغة العربية .

المبحث الثانى : مفهوم الثقافة فى الاصطلاح العربى .

المبحث الثالث : مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى .

المبحث الرابع : مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الغربى المعاصر .

المبحث الخامس : مدى الاتفاق أو الاختلاف بين الاصطلاح الإسلامى . والاصطلاح الغربى فى مفهوم الثقافة .

المبحث السادس : مكونات الثقافة .

المبحث السابع : أهمية الثقافة للبشرية .

المبحث الثامن : المثقف .

المبحث التاسع : علاقة مفهوم الثقافة بغيره من المفاهيم .

تمهيد
علاقة الإسلام بالثقافة الإنسانية

جاء الإسلام الحنيف بتشكيل جديد للعقل الإنساني من خلال تحولات جذرية على كافة المستويات . وكان ذلك مولداً لطاقة ثقافية وحضارية فذة . كان لا بد أن تؤدى عطاءها المتواصل البناء فى شتى المجالات .

وعلاقة الإسلام بالثقافة الإنسانية تتمثل فى اتجاهين :-

الاتجاه الأول :- خلق أو إيجاد .

الاتجاه الثانى :- بعث أو إحياء .

★★ الاتجاه الأول ★★

اتجاه الخلق أو الإيجاد وهو ما يسمى بالثقافة الإسلامية الأصيلة .

وهى الثقافة التى كان مصدرها الأساسى والوحيد هو الإسلام . فلم تنقل هذه الثقافة من ثقافة أو ثقافات أخرى أو تتأثر بها ولم تدن بأى تعاليم أو مبادئ لعوامل أجنبية سابقة أيا كانت فلم تكن هذه الثقافة الإسلامية الأصيلة معروفة قبل الإسلام (١) وما كان لها أن تُعْرَف بأى حال من الأحوال . لأن العقل البشرى لا يستطيع أن يصل إليها بنفسه . من غير هدى الله . المعصوم والمحفوظ من أى عبث أو تحريف .

وهذه الثقافة التى نشأت باسم الله تعالى وسار الناس فيها بأمره وتوجيهه على ما جاء فى القرآن الكريم من مبادئ وأفكار فى شتى المجالات :- العقائدية . والتشريعية . والأخلاقية . والسلوكية وما اتصل

---

(١) أقصد الثقافة الإسلامية بالمفهوم الخاص للإسلام الذى هو علم على ما جاء به سيدنا محمد - ﷺ - لا المفهوم العام للإسلام كدين من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين - ﷺ - .

بذلك من مجالات متعددة . تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة الإنسان فى كل زمان ومكان وشأن .

وبالتأكيد كل ما جاء به الإسلام فى هذه المجالات كان جديداً على الساحة العالمية – حينذاك – لأن الإسلام وحده كان مصدر التشريعات التى أنقذت الإنسانية من وهدتها . وأخرجتها من الضلالة . إلى الهداية . ومن ظلمات الجهالة . إلى نور العلم والمعرفة .

وهذه الثقافة الإسلامية الأصيلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقيدة التوحيد . وكان الإسلام الحنيف فى مسألة العقيدة واضحاً وحاسماً . لذلك ثبتت الثقافة التى نشأت عنه خلال أعتى الأعاصير وأشد المحن والشدائد التى مر بها الإسلام والمسلمون . كغزوات التتار والحروب الصليبية وغير ذلك .

هذا فى حين أن البشرية قبل الإسلام لم تكن كلها على عقيدة التوحيد الخالص لله عز وجل ولذلك ألَّه الناس الإنسان والحيوان . وألهُوا الأحجار والكواكب والأشجار الخ .

ومنعاً لهذ كله جاء الإسلام واضحاً فى هذه المسألة كل الوضوح فقال تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (١) . ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٢) .

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٣) . ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ

---

(١) سورة البقرة [١٦٣] .
(٢) سورة الأنبياء [٢٢] .
(٣) سورة المؤمنون [٩١] .

كَـمَنْ لاَ يَخلُق﴾ (١) . **﴿أتَعْبُـدُونَ مَا تَنحتُـون﴾** (٢) . **﴿إِذْ قَـالَ اللّه يا عِـيسى ابْنَ مَـرْيمَ أأنتَ قُلْتَ للنَّاس اتَّخـذُونى وأُمّى إلهَـيْنِ مِنْ دُونِ اللّه قَالَ سُبْحَانَك ...﴾** (٣) .

وكما عجزت البشرية قبل الإسلام فى مجال العقيدة . عجزت كذلك عن الوصول لنظم تشريعية وأخلاقية . واجتماعية . واقتصادية . وسياسية سليمة . فكانت الأخلاق مثار خلاف كبير بين الناس . فالعدل مثلا عد فضيلة عند بعض الناس . واعتبره الأكثرون دليل ضعف . (فجاءت ثقافة الإسلام تبرز الحق فى هذه الأمور التى اختلفت فيها الأفهام وضعفت العقول عن حلها . ومن هنا فرأى الإسلام فى السياسة والاقتصاد والأخلاق رأى أصيل أنقذ المجتمع البشرى من انحرافه ومتاهاته) (٤) .

★★ الاتجاه الثانى ★★

اتجاه البعث أو الإحياء . وهو ما قام به المسلمون فى العلوم التى عرفتها الإنسانية قبل الإسلام . ثم تضاءلت أو ماتت . ثم بعثت من جديد على أيدى المسلمين . ففتحوا مغاليقها . وذللوا صعابها . وترجموا كتبها . وحفظوا جميع فروعها .

والدور الذى اضطلع به المسلمون فى إنارة العالم . وبعث الهمم وإحياء الضمائر . وإزكاء العقول . أخبر عنه القرآن الكريم فى قوله سبحانه - **﴿استَجِيبُوا للّه وَللرَسُول إذَا دَعَاكُمْ لمَا يُحْيِيكُمْ﴾** . (٥) .

---

(١) سورة النحل [١٧] .
(٢) سورة الصافات [٩٥] .
(٣) سورة المائدة [١١٦] .
(٤) الفكر الإسلامى م منابعه وآثاره د / أحمد شلبى صـ ١٨ - ١٩ طـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥ م .
(٥) سورة الأنفال [٢٤] .

وتعبير القرآن الكريم بالإحياء فى الاستجابة للفكر الإسلامى يوحى بأن النقلة الإسلامية لهذه الشعوب الشاردة على وجه الأرض كانت كبيرة وعميقة وجوهرية . بحيث اعتبر المقابل لها مواتاً وضياعاً .

إن دعوة الإسلام فى الحقيقة دعوة لإحياء القلوب والعقول وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة . ومن ضغط الوهم والأسطورة . ومن الخضوع المذل . والعبودية القاهرة لغير الله سبحانه .

كما أن الإسلام دعوة إلى تحرير الإنسان وتكريمه فى ظل أخوة عامة . وشريعة ربانية كريمة .

كما يدعوهم إلى القوة والعزة . والاستعلاء بعقيدتهم . ومنهجهم . والثقة بدينهم وبربهم والانطلاق فى الأرض كلها لتحرير الإنسانية كلها .

والحقيقة أن مجمل ما يدعو إليه الإسلام . هو الدعوة إلى الحياة . بكل معانيها . لأنه منهج حياة كاملة . منهج واقعى تنمو الحياة فى ظله وتترقى . ومن ثم فهو دعوة إلى الحياة فى كل صورها وأشكالها ومجالاتها ودلالاتها) (١) .

وبعد أن أشرقت شمس الإسلام على الإنسانية . وحمل المسلمون التعاليم الربانية لإحياء الإنسانية بتعاليم السماء روحياً وعقلياً ونفسياً ليكتمل وجوده الجسدى والروحى ويعيش الحياة بقدراته مجتمعة . حثهم الإسلام على النظر والتدبر والعلم . والفهم والاستفادة من كل نافع . وطلب كل مفيد . فانطلق المسلمون ينظرون فى كل شيئ . ويبحثون فى كل فج . ويستفيدون

(١) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية / توفيق يوسف الواعى صـ ٣٨٧ ط ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م . دار الوفاء بالمنصورة .

من كل حديث وقديم . وينقبون عن كل علم . ويسيرون وراء كل حكمة يأخذون العبرة من الماضى . وينطلقون للمستقبل . ويستفيدون من القديم ويبنون الجديد .

وكانت لهم جولات وصولات فى كل ناحية من نواحى الحياة فى العلم . وفى الحكمة . فى الأخلاق وفى الفلسفة . فى الطب وفى الهندسة . فى الجغرافيا وفى الفلك . فى الصناعة وفى الكيمياء . فى الصيدلة وفى الزراعة . فى التاريخ وفى القصص . فى اللغة وفى الحيوان . فى الفيزياء وفى الأحجار والمعادن ... الخ .

[ولم يدخر المسلمون جهداً فى البحث عن تراث الأمم السابقة فى العلوم المختلفة . رغم صعوبة ذلك . لتقادم العهد بها . وعدم معرفة قدرها عند مقتنيها . وإهمالها . وكثرة الحروب والفتن . وكلما طالت الشقة فى الزمان بين عصر المصنف وعصر الباحث . زادت الصعوبة وتضاعف الجهد] (١) .

فقد نقب المسلمون فى كل ما أنتجته العقول البشرية فى شتى الثقافات والحضارات السابقة فى مصر والشام والعراق وفارس والإغريق والرومان . ولم ير المسلمون أن هذه الحضارات أو الثقافات وثنية يجب إعلان الحرب عليها . كما فعلت المسيحية فى أول عهدها وطوال العصور الوسطى . ولم تقع فى الوقت ذاته تحت تأثيرها . كما وقع الرومان تحت تأثير الإغريق وكما وقعت المسيحية ذاتها تحت قبضة الإغريق والرومان معاً) (٢) .

وإنما تعاملوا مع الحضارات التى وقعوا تحت تأثيرها أو وقعت تحت

---

(١) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية . د / توفيق يوسف الواعى صـ ٨٩ .

(٢) الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة د / عبد الغنى عبود صـ ٩٨ وما بعدها طـ دار الفكر العربى ١٩٨١ م .

تأثيرهم . بروح الإسلام فأخضعوها لتأثيره . ولم يخضعوه هو لها . (ولم يكن لدى المسلمين أول الأمر - تراث حضارى شامخ ينافسون به الشعوب الأخرى ذات الحضارات القديمة . ومع ذلك فقد كان لديهم عندئذٍ ما هو أهم . وهو القدرة على التعلم السريع والإفادة من الغير . وتشرب الاتجاهات النافعة فى الحضارات التى قدر لهم أن يلتقوا بها فى طريق توسعهم) (١) .

ذلك أن هذه الحضارات السابقة كانت تحوى عناصر مما يصلح دنيا المسلم مما يجب [أن يتحصل عليها المسلمون والكفار سواء . ولا تؤثر بذاتها فى عقيدة القلب أو اتجاه الشعور) (٢) .

وهى فى الوقت ذاته تصلح للتطبيق مع كل عقيدة وكل تنظيم) (٣) حيث لا تصدم الدين ولا تخدشه حينما تخلص فيها النية . وتتجرد من الحزلقة والادعاء (٤) .

من هذا المنطلق ترجم المسلمون حكمة الهنود وفلسفة الإغريق وعلومهم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيميائية والطبية . وفهموها فهماً دقيقاً وهضموها هضماً حقيقياً ووجهوها توجيهاً مستقيماً . وعلقوا عليها تعليقات رشيدة مفيدة . وجددوا فيها تجديدات أساسية نافعة .

[وبالإجمال كانوا يتناولون المنتجات الإنسانية فى عصرهم بالترجمة وإصلاح الأخطاء والتقويم ويتقدمون نحو الكمال بالمبادئ العلمية التى

---

(١) المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية : د / سعيد عبد الفتاح عاشور صـ ١٥ طـ دار النهضة بيروت ١٩٦٣ م .

(٢) قبسات من الرسول - ﷺ - : محمد قطب ١٨٦ طـ ٢ دار الشروق .

(٣) السابق صـ ١٨٤ .

(٤) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب صـ ٢٠٣ طـ دار الشروق .

يلتقون بها في الأصفاع التي يفتحونها .

وكذلك العلوم التي يستقدمونها من البقاع التي نشأت فيها دون تعصب أو تحيز أو ضيق بسبب الاختلاف في الرأي أو التباين في الاعتقاد . وكانوا يشيدون المراصد ويقيسون الأبعاد ويتعمقون في دراسة أصول الحياة . ووظائف الأعضاء (١) . حتى أخرجوا للعالم في برهة من الزمان ما يشبه المعجزة وفي هذا تقول المستشرقة " زيغريد هونكه " . : - (إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة . التي قفزها أبناء الصحراء - المسلمون - والتي بدأت من اللاشيئ . لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني . وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة في هذا العصر لفريدة في نوعها لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها . وتدعونا هنا أن نقف هنيهة متأملين . كيف حدث هذا ؟؟ .

وكيف أمكن لشعب لم يمثل من قبل دوراً حضارياً أو أساسياً يذكر . أن يقف مع الإغريق - في فترة وجيزة - على قدم المساواة ؟؟ .

إن ما حققه العرب - المسلمون - لم تستطع أن تحققه شعوب كثيرة أخرى كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا) (٢) .

إن المسلمين استخدموا كل ما وقع تحت أيديهم . أحسن استخدام . وأضافوا إليه وجددوه وأغنوه وأعادوا تركيبه في وقت كانت الحاجة أمس ما تكون للتعبير والتبديل . وتوسيع نطاق البناء . بعد أن كانت المعطيات

---

(١) حول مبادئ وقيم إسلامية : د / محمد غلاب صـ ٩ طـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب : زيغريد هونكه صـ ٣٥٤ طـ ٨ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .



الثقافية والحضارية القديمة غير صالحة تماماً لحاجات العصر الجديد . ومطالب الإنسان المؤمن بالدين الجديد .

إن كثيراً من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمراً – رجعياً – وكانت حركة الإسلام التقدمية تقضى بضرورة تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجاماً مع إيقاع الحياة التى صاغها الإسلام ليس هذا فحسب بل إن العقل الإسلامى المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر عناصر وقيماً حضارية جديدة بالكلية . وأن يقدمها للعالم ثماراً يانعة لجهده الخاص .

(وليس كل ما صنعه المسلمون هو حماية التراث الحضارى القديم وإعادة شرحه وتفسيره وإضافة بعض الشروح والهوامش عليه . وكأنَّ ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضارى . لقد أبدع العقل الإسلامى ابتداءً قيماً جديدة . وابتكر واكتشف كثيراً من المعطيات والنظم الحضارية التى كانت بمثابة الأسس التى ينبت عليها فيما بعد حضارات أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها) (١) .

من شهادات الغربيين لدور المسلمين فى بعث الثقافات السابقة وإحيائها :–

إن الثقافة الإسلامية هى الثقافة الفذة العريقة التى استطاعت أن تتمثل كل الثقافات والحضارات السابقة عليها وأن تهضمها هضماً قوياً بما فيها من أفكار وفلسفات وعلوم وفنون . ثم تخرجها إلى البشرية عنصراً قوياً باهراً . له صفاته الخاصة . وملامحه العربية المتميزة . ولونه الإسلامى

---

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم د / عماد الدين خليل صـ ٧٣ – ٧٤ طـ كتاب الأمة بدولة قطر رقم ٤ .

الواضح وإن كثيراً من علماء الغرب الذين يتخذون المنهج العلمى السليم طريقهم ليؤكدون فى غير تحرج أو موارية . أنه لولا الثقافة الإسلامية . بما حفظته من معطياته الثقافات القديمة وبما قدمته من أفكار ومعطيات علمية جديدة . ما قامت فى الشرق أو الغرب هذه النهضات الحديثة التى استطاعت أن تحرز كثيراً من التفوق على غيرها من أمم الأرض بالاستعمار تارة وبالتقدم الصناعى والفنى تارة أخرى .

ومما قاله علماء الغرب من المستشرقين فى هذا الصدد :-

ما قاله غوستاف لوبون : [لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون] (١) .

وتقول « زيغريد هونكه » : (لو لم يبعث الشعب العربى المسلم الموهوب فى حضارات البحر المتوسط روحاً جديدة لاندثرت تلك الحضارات تماماً . كما حدث لحضارات المايا (٢) . والأنكا (٣) . (٤) .

ويقول فيلسوف آخر :- (إن العلوم التى تلقاها العرب المسلمون - عن اليونانيين وغيرهم كانت ميته بين دفَّاتِ الدفاتر . مقبورة بين جدران المكاتب . أو مخزونة فى بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الحزائن . لاحظ للإنسانية منها سوى النظر إليها . صارت عند العرب المسلمين حياة الآداب . وغذاء الأرواح . وروح الثروة . وقوام الصنعة .

ومهمازاً للقوى البشرية . يسوقها إلى كمالها الذى عُدَّت له . وليس فى

(١) حضارة العرب غوستاف لوبون صـ ٥٦٨ طـ الحلبى بمصر ١٩٦٩ م .

(٢) المايا : هنود من أمريكا الوسطى بلغوا شأواً عظيماً من الحضارة قبل اكتشاف أمريكا . وقد تركوا آثاراً فنية بديعة .

(٣) الأنكا : هم شعب من الهنود الحمر كانت لهم حضارة زاهرة تشهد بذلك الآثار التى اكتشفها العلماء فى أمريكا . وقد انقرض هذا الشعب فى القرن ١٥ م - راجع شمس العرب تسطع على الغرب صـ ١٠٣ - ٤٠٣ .

(٤) المصدر السابق صـ ٣٥٩ .

الأوربيين من درس التاريخ . وحَكَّمَ العقل . ثم ينكر أن الفضل فى إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم وفى تعليمها كيف تنظر . وكيف تفكر وفى معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم . إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا . وجنوب إيطاليا . وفرنسا عليهم . (١) .

وكان من بين العلوم التى بعثها المسلمون : علم الفلك وقد أضافوا إليه مثلما تلقوا منه بل أكثر . وكذلك الهندسة . ولكنهم أضافوا إليها الهندسة التحليلية . وهم منشئوا علم حساب المثلثات . سواء للسطوح أم للدوائر . ويشير الجبر فى اشتقاق تسميته إلى ما يدين به للبحث العلمى العربى الإسلامى .

على أن فضل العرب المسلمين على علم الرياضيات . وإبداعهم الخلَّاق على أى حال كان فى النظام العشرى الذى استمدوه من الهند ووسعوه كثيراً .

وقد جاء تصميم المسلمين للبوصلة اعتماداً على أصول صينية . وقد استعانوا بها لا على عبور البحر المتوسط فحسب . بل على المخاطرة بالتوغل فى المحيط الأطلسى (٢) .

وبهذا يتضح أن المسلمين الأوائل اطلعوا على ثقافات غيرهم من الأمم المعاصرة لهم . واستطاعوا درسها وفهمها وصياغتها صياغة إسلامية علمية سليمة مفيدة . أفادت الأمم بعدهم . خاصة الأوربيين فى نهضتهم المعاصرة .

---

(١) الإسلام والنصرانية : الشيخ محمد عبده صـ ٨٧ طـ صبيح ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م .

(٢) المسلمون فى تاريخ الحضارة ستانوركب ترجمة د / محمد فتحى عثمان صـ ٤٧ طـ ٢ الدار السعودية بجدة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

المبحث الأول

مفهوم الثقافة فى اللغة العربية :-

تطلق كلمة الثقافة فى اللغة العربية على معان كثيرة منها :-

المعنى الأول : الحذق - الفطنة - البراعة - الذكاء .

ففى القاموس المحيط : [ثقف . ككرم وفرح ، ثَقْفاً ، وثَقَفاً ، وثقافة : صار حاذقاً خفيفاً فطناً . فهو ثَقِفٌ كخَبِر وكتف . وامرأة ثَقَاف كسحاب : فطنة .

وثاقفه : فثقفه - كنصره ؛ غالبه فغلبه فى الحذق (١) .

وفى تاج العروس : ثقافة . مصدر ثقف : صار حاذقاً خفيفاً . فطناً .

وقال ابن السكيت : رجل ثقف لقف إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به) (٢) .

وفى لسان العرب : (ثقف الشئ . ثقْفاً وثَقَافاً وثقوفة : حذقه . ورجل ثَقْف وثِقْف وثُقف : حاذق فِهْمٌ .

وقال ابن دريد : ثقفتُ الشئ : حذقته . وثَقُف الرجل ثقافة : أى صار حاذقاً خفيفاً . مثل : ضَخُم : فهو ضَخْمٌ . وثَقِفَ أيضاً ثقفا . مثل : ثقِبَ ثقباً : أى صار حاذقاً فطناً فهو ثقفٌ . ففى حديث الهجرة وهو غلام لَقِنٌ ثقفٌ : أى ذو فطنة وذكاء . والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه . وفى حديث أم حكيم بنت عبد المطلب : إنى حَصَان فما أُكَلَّم : بضم الهمزة وفتح الكاف وتشديد اللام المفتوحة ... وثَقَاف فما أُعلِّم -

---

(١) القاموس المحيط جـ ٣ صـ ١٢٥ طـ : دار الجيل - بيروت - بدون تاريخ .

(٢) تاج العروس الزبيدى جـ ٦ صـ ٥١ منشورات مكتبة الحياة بيروت — بدون تاريخ .

بضم الهمزة وفتح العين وتشديد اللام المفتوحة (١) وثَقُفَ فهو ثقيف وثَقِّيفٌ بالتشديد : حذق (٢) .

وفى مفردات الراغب الأصفهانى :

الثَّقف : الحذق فى إدراك الشيئ وفعله (٣) .

المعنى الثانى :- سرعة الفهم والتعلم .

ففى المصباح المنير :-

[ثَقِفْتُ الحديث : فَهِمْتُه بسرعة] (٤) .

وفى لسان العرب : [ويقال : ثقف وهو سرعة التعليم] (٥) .

وفى أساس البلاغة :

وثقفت العلم أو الصناعة فى أَوْحَى مدة . إذا أسرعت أخذه] (٦) .

المعنى الثالث :- إدراك الشيئ ، وأخذه أو الظفر به .

ففى القاموس المحيط : [وثَقِفَهُ كسمِعَهُ : صادفة أو أخذه وظفر به ، أو أدركه : وأثقفته أى قيض لى] (٧) .

وفى مفردات الراغب الأصفهانى :-

---

(١) قالت ذلك لما حاورت أم جميل بنت حرب أى أنها امرأة محصنة فلا يخدشها أحد مثقفة لا تحتاج لتعليم ولا تهذيب - تاج العروس الزبيدى جـ ٦ صـ ٥١ ويراجع تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٤ صـ ٥٦٥ .

(٢) لسان العرب جـ ١٠ صـ ٢٦٢ - ٢٦٣ طـ : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر بدون تاريخ .

(٣) مفردات الراغب الأصفهانى صـ ٧٩ ط : دار المعرفة - بيروت ، بدون تاريخ .

(٤) المصباح المنير جـ ١ صـ ٨٢ طـ : المكتبة العلمية - بيروت . بدون تاريخ .

(٥) جـ ١٠ صـ ٢٦٣ مادة : ثقف - فصل الثاء - حرف الفاء .

(٦) أساس البلاغة للزمخشرى جـ ١ صـ ٩٥ الطبعة الثالثة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

(٧) جـ ٣ صـ ٢٥ .

[ويقال : ثَقِفْتَ كذا إذا أدركته ببصرك لحذق فى النظر . ثم يتجوز به فيستعمل فى الإدراك . وإن لم تكن معه ثقافة ؛ قال تعالى :-

﴿ واقْتُلُوهُم حيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ (١) ، ﴿ فَإِمَّا تثْقفَنَّهُمْ فِى الحَرْب ﴾ (٢) ، ﴿ ملْعُونِين أيْنما ثُقِفُوا ﴾ (٣) ، (٤) .

وفى لسان العرب :-

[وثقفته : إذا ظفرت به . قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا تثْقفَنَّهُمْ فِى الحرْب ﴾ ثقف الرجل : ظفر به . وثَقَفْتُه ثَقْفاً . مثال : بلعته بلعاً . أى صادفته ، وقيل :

فإما تثقفونى فاقتلونى **** فإن أثقف فسوف ترون بالى

وثقفنا فلاناً فى موضع كذا . أى أخذناه . ومصدره الثقف . وفى التنزيل العزيز ﴿ وَاقْتُلُوهُم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ (٥) .

وفى أساس البلاغة :-

[وطلبناه فثقفناه فى مكان كذا . أى أدركناه] (٦) .

المعنى الرابع :- التقويم والتهذيب للمعوج من الأشياء مادياً كان أو معنوياً :

ففى لسان العرب :

(الثقاف : حديدة تكون مع القوَّاس والرمَّاح ، ويُقوِّمُ بها الشيئ المعوج . والثقاف : ما تسوى به الرماح . ومنه قول عمرو :-

---

(١) سورة البقرة [١٩١] .

(٢) سورة الأنفال [٥٧] .

(٣) سورة الأحزاب [٦١] .

(٤) مفردات الراغب صـ ٧٩ .

(٥) جـ ١٠ صـ ٣٦٣ .

(٦) صـ ٤٦ .

إذا عض الثقاف بها اشمأزت **** نشد قفا المثقف والجبينا .

وتثقيفها : تسويتها .

وفى حديث عائشة تصف أباها – رضى الله عنهما – : "وأقام أوده بثقافه . تريد أنه سوى عوج المسلمين] (١) .

وفى أساس البلاغة : (– ثقف القناة : عض بها الثقاف – والصواب : عضها بالثقاف – ومن المجاز أدبه وثقفه . ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئاً . وهل تهذبت وتثقفت إلا على يديك ؟) (٢) .

وفى المعجم الوسيط : (ثَقَّفَ الشيئَ : أقام المعوج منه وسواه . والإنسان : أدبه وهذبه وعلمه) (٣) .

فالتثقيف للأشياء المادية كالرماح والسيوف : تقويم اعوجاجها وتسويتها .

والتثقيف للإنسان : تقويم أخلاقه وتهذيبه .

وكما أن تثقيف الرمح والسيف : يعنى تسويته وإزالة الاعوجاج منه ، فكذلك تثقيف الإنسان : يعنى شحذ ذهنه وتهذيبه كى يكون أسرع فهماً ، وأوسع إدراكاً ، فطنا فيما يقوله أو يفعله أو يراه .

[وكما أن التثقيف فى الأشياء المادية يكون بالثقاف . وهو آلة التهذيب والتسوية المادية .

فكذلك يكون فى النفوس البشرية بأدوات التهذيب المناسبة من معتقدات

---

(١) جـ ١٠ صـ ٣٦٣ .

(٢) صـ ٤٦ .

(٣) جـ ١ صـ ٩٨ .

وقيم وآداب ... الخ] (١) .

وهكذا تلتقى المعاجم اللغوية حول كلمة - ثقافة .

حيث جاءت كلها تفسر الكلمة بأنها :-

[الحذق والفطنة والبراعة والذكاء] .

[أو سرعة الفهم ، والتعلم]

[أو إدراك الشيئ والظفر به] .

[أو التقويم والتهذيب للمعوج من الأشياء مادياً كان أو معنوياً] .

(١) الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء : د / عبد المنعم النمر صـ ٢١ - بتصرف طـ : دار المعارف بمصر .

المبحث الثانى

مفهوم الثقافة فى الاصطلاح العربى :-

تعددت وجهات نظر العلماء والباحثين - العرب من المسلمين وغير المسلمين - حول تحديد مفهوم الثقافة فى الاصطلاح :

١ - فاصطلح البعض على أن الثقافة هى [كل ما فيه استنارة للذهن ، وتهذيب للذوق ، وتنمية لملكة النقد ، والحكم ، لدى الفرد أو المجتمع ، وتشتمل على المعارف والمعتقدات ، والفن والأخلاق ، وجميع القدرات التى يسهم بها الفرد فى مجتمعه ، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية ، وروحية] (١) .

فهى فى الجانب الفكرى النظرى أكثر منها فى الجانب العملى التطبيقى .

٢ - واصطلح البعض على أن الثقافة هى السلوك الخاص بالأفراد والجماعات فهى عندهم فى السلوك أكثر من أن تكون فى المعرفة والأفكار . فتعرف بصورة عملية على أنها [مجموعة من الصفات الخلقية . والقيم الاجتماعية التى تؤثر فى الفرد منذ ولادته . وتصبح هى العلاقة التى تربط سلوكه بأسلوب الحياة فى الوسط الذى ولد فيه] (٢) ، فهى على هذا المفهوم المحيط والجو الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته :-

أ - محيط يتحرك فيه الإنسان . فهو يغذى إلهامه . ويكيف مدى صلاحيته للتأثر والتأثير عن طريق التبادل .

ب - وهى - جو - يتكون من عادات وتقاليد وأشكال وحركات تطبع على

---

(١) المعجم الفلسفى صـ ٥٨ مجمع اللغة العربية طـ : ١٩٨٣ م .

(٢) مشكلة الثقافة : مالك بن بنى صـ ٩٤ طـ : ٤ دار الفكر بدمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .

حياة الإنسان اتجاهاً وأسلوباً خاصاً يقوى تصوره . ويلهم عبقريته . ويغذى طاقاته الخلاَّقة . (إنها الرباط العضوى بين الإنسان والإطار الذى يحيط به] (١) .

٣ - واصطلح البعض على أن الثقافة هى الأمور النظرية أو الفكرية فى الحياة الإنسانية ، أى أن الثقافة هى : [الرقى فى الأفكار النظرية ، ويشمل ذلك ، الرقى . فى القانون والسياسة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمة ... وأمثال ذلك من الاتجاهات النظرية] (٢) . أى أن الثقافة [تطلق على الجانب الروحى أو الفكرى] (٣) . أو هى [حصيلة ما يتجمع فى العقل من معارف . وما يكن فى الوجدان من انطباعات . وما يستقر فى الضمير من عقائد . وما يرسب فى النفس من عادات وتقاليد] (٤) . أو هى [ما يوثق بين البشر من روابط فى فترة معينة . فهى الأفكار والآراء والمقاييس والمستويات التى يشاركون فيها] (٥) .

٤ - واصطلح البعض على أن الثقافة هى الأمور العملية التطبيقية فى الحياة الإنسانية (فهى رصيد الفاعليات الإنسانية متجلية فى السلوك العملى والعقلى ، وهى سلوك متعلم ومنقول اجتماعياً بواسطة الإنسان والمؤسسات أو النظم الاجتماعية) (٦) . وهى [تخص أسلوب الحياة فى

---

(١) فكرة الإفريقية الأسيوية : مالك بن بنى صـ ١٣٦ طـ : دار الفكر دمشق ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

(٢) الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره د / أحمد شلبى صـ ١٥ ط : ٥ - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥ م .

(٣) الإسلام والحضارة الغربية د / محمد محمد حسين صـ ٦ طـ ٧ مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

(٤) عن الثقافة : د / عبد المنعم الصاوى صـ ٣٤ طـ : دار القلم بالقاهرة ١٩٦٦ م .

(٥) فلسفة العلم د / صلاح قنصوة صـ ٧٣ طـ : دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨١ م .

(٦) فلسفة العلم : صلاح قنصوة صـ ٧١ - ٧٢ .

مجتمع معين من ناحية ، كما تخص السلوك الاجتماعى الذى يطبع تصرفات الفرد فى ذلك المجتمع من ناحية أخرى) (١) .

الملاحظ على تعريفات الثقافة فى الاصطلاح العربى :-

إن هذه التعريفات للثقافة فى الاصطلاح العربى : كل منها يعرفها ويفسر مفهومها بحسب الاتجاه الذى يغلب عليه . ونظرته الخاصة . وفلسفته التى يعتنقها .

غير أن أكثر هذه الاتجاهات فى تفسيرها لمفهوم الثقافة يلاحظ أنها تفسيرات جزئية محدودة ، وليست كلية ولا جامعة لكل ما يحتوى عليه المفهوم الكلى للثقافة .

فبعض هذه التعريفات يركز على الأمور الفردية ، وبعضها يركز على الأمور الجماعية ، وبعضها يركز على الأمور المعنوية ، وبعضها يركز على الأمور المادية : نظرية ، أو عملية .

وذلك لأن الناس غالباً ينحازون إلى ما يحبونه من نشاط ، فالفيلسوف مثلاً يركز مفهوم الثقافة - غالباً - فى مجال النشاط الذهنى ، والفنان يقصره على الجانب الجمالى التذوقى ، والأديب يقصره على الأدب شعراً كان أو نثراً أو قصة ، ... الخ .

والواقع أن مفهوم الثقافة مفهوم كلى مركب متشابك تُكوِّنه الأمور الفردية والجماعية النظرية والعملية المادية والمعنوية ، مجتمعة متعاونة متكاملة .

ولذا - أرى - أن التفسير الأقرب إلى القبول هو :-

أن الثقافة تجمع بين الجانب النظرى المجرد ، والجانب العملى التطبيقى ، أو المادى والمعنوى فى الحياة الإنسانية ، (فهى تفيد معنى ما يكتسبه

---

(١) مشكلة الثقافة : مالك بن نبى صـ ١٣ .

الإنسان من ضروب المعرفة النظرية . والخبرة العملية التى تحدد طريقته فى التفكير . ومواقفه فى مختلف طرق الحياة . ومن أى جهة حصلت تلك المعرفة وتلك الخبرة . سواء أكانت من البيئة والمحيط والمدرسة والمهنة . أم من طرق أخرى غيرها) (١) . أى أن الثقافة تعنى كل الجوانب المادية والفكرية النظرية والعلمية التى تسوغ كل ما يصنعه الإنسان فى العالم ، وفيها يمتزج الماضى بالحاضر والمستقبل . (فهى إشباع لحاجات الماضى ، وتعبير عن خبرة الحاضر وإفساح عن آمال المستقبل) (٢) .

وهى الصورة الحية للأمة . فهى التى تحدد ملامح شخصيتها .. وقوام وجودها . وهى التى تضبط سيرها فى الحياة . وتحدد اتجاهها فيها . إنها عقيدتُها التى تؤمن بها ، ومبادؤها التى تحرص عليها ونظمها التى تعمل على التزامها ، وتراثها الذى تخشى عليه الضياع والاندثار . وفكرها الذى تود له الذيوع والانتشار) (٣) .

وهى : كل أساليب الحياة التى خلقها ويخلقها الإنسان ويتعلمها ويعلمها وينقلها إلى الأجيال المختلفة ، ويشترك فيها مع غيره من أعضاء المجتمع ، وهى تشمل كل أنواع السلوك والعادات والتقاليد والأفكار والمعتقدات والقيم والمثل العليا ، والمحرمات ، وجميع الأساليب الثقافية واللغة وأساليب الاتصال والفنون والآداب والأشياء المادية الناتجة عنها) (٤) .

وعلى هذا : فالثقافة مجموعة مكتسبة من الخصائص والصفات . تحدد

---

(١) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية : د / محمود الخالدى جـ ١ صـ ٤٢ طـ ١ : دار الفكر عمان بالأردن - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ .

(٢) فلسفة العلم : د / صلاح قنصوة صـ ٧٤ .

(٣) لمحات فى الثقافة الإسلامية : عمر عودة الخطيب صـ ١٣ طـ ٩ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(٤) الثقافة والتربية : د / حسن الفقى صـ ٨ طـ ١ القاهرة ١٩٧٠ م .

للإنسان - أى إنسان - نوعاً متميزاً من السلوك يقوم على مجموعة من القيم والمثل ، والمفهومات يؤثرها ويتمسك بها ويحرص عليها ، وهذه الخصائص والصفات تتوفر لديه على مر العصور والأجيال :-

أ - نتيجة لتطور عقلى يكسبه من المهارات الذهنية والعملية ما يحقق له التفوق والامتياز .

ب - ونتيجة لتطور وجدانى يحمله على الانفعال بما فى الحياة من قبح أو جمال وما فيها من باطل أو حق .

جـ - ونتيجة لتطور نفسى يقوى شعوره بالقيم ويزيد من قدرته على التمييز بين ما هو شر ، وما هو خير ، وما هو خطأ ، وما هو صواب .

د - ونتيجة لتطور اجتماعى : يربطه بسواه فى وحدات تتفاوت وتتخذ شكل الأسرة أو القبيلة أو الوطن أو الأمة أو الجنس البشرى كله) (١) .

وهذا التفسير أقرب إلى القبول ، لأنه ينظر إلى مفهوم الثقافة على أنه مفهوم كلى شامل ، وليس هناك مبرر يحتم على الباحث فى هذا المفهوم أن يجتزئ أو يأخذ من المفهوم جانباً ويترك منه باقى الجوانب ، ومن ثم فأعنى بالثقافة : المعنى الواسع . أى كل الجوانب المادية والفكرية التى تصوغ كل ما يصنعه الإنسان فى العالم والتى يتعاون فيها الماضى مع الحاضر والمستقبل .

(فهى أسلوب من الممارسة ينطوى على معتقدات وعادات ومهارات ويتضمن البواعث والمثل العليا التى تحث الفرد والجماعة على المشاركة فى إنشاء النظم الإنسانية المادية والروحية ، كما يحمل فى باطنها المبادئ

---

(١) عن الثقافة : د / عبد المنعم الصاوى صـ ٣٦ - ٣٧ .

والقيم والمقاييس التى تقدر بموجبها تلك الأساليب والنظم الثقافية نفسها ويحكم عليها) (١) .

تجدد مفهوم الثقافة بتجدد الحياة الإنسانية :-

هذه التعريفات الأكثر كلية وشمولية - من وجهة النظر الخاصة - لن تكون نهائية ، فكلما يَجِدُّ جديد فى الحياة الإنسانية فى مختلف ميادينها فسيكون له أثره على مفهوم الثقافة . فيتغير تبعاً له ، وذلك لأنه يتصل بالإنسان نفسه ، ولأن فكر الإنسان يتطور ويتغير بحسب الزمان والمكان ، فإن تحديد مفهوم الثقافة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة التى يناقش فيها وعليه فقد أخذت تعريفات الثقافة تتطور وتتغير مع تطور الفكر البشرى والفهم المتجدد للأمور .

وما ذلك إلا لأن كلمة الثقافة فى مفهومها العرفى أو الاصطلاحى من الكلمات التى شاع استعمالها فى اللغة العربية نتيجة اتصالها بالأفكار والاصطلاحات الأجنبية .

وإذا ما رجعنا قليلاً فى مجال البحث عن كلمة - الثقافة - فى مراجعنا الأصلية الأصيلة . لم نجد أثراً لتلك الكلمة فى لغة العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذى يعتبر المرجع الأول لعلم الاجتماع العربى والإسلامى .

ولو رجعنا إلى الوراء أكثر من ذلك . لم نجد هذه الكلمة - الثقافة - مستعملة فى العصر الأموى والعباسى إذ لا أثر لها فى اللغة الأدبية . أو اللغة الرسمية والإدارية .

فتاريخ هذه الحقبة . لم يروِ وجود لائحة إدارية خاصة بمنظمة معينة أو

---

(١) الموضوعية فى العلوم الإنسانية د / صلاح قنصوة صـ ١٣ طـ : ٢ دار التنوير للطباعة - بيروت - لبنان ١٩٨٤ م .

عمل من الأعمال يتصل بـ (الثقافة) .

ولم يحدث أن وقفت عين على شيئ من هذا القبيل (١) .

ومع ذلك . فإن تاريخ الإسلام والمسلمين فى تلك الحقبة وما قبلها يدل على أن الثقافة كانت فى قمة مجدها وازدهارها .

وكان مضمونها واضحاً . فقد كان يعنى : البراعة فى فروع كثيرة من المعرفة النظرية والتطبيقية .

ومما يؤكد ازدهار الثقافة فى تلك الحقبة – مع عدم ذكر لهذه الكلمة – فى المصادر المدونة – : أن العلامة ابن خلدون قد تناول فى مقدمته الحديث عن كثير من العلوم وأصنافها . والتعليم وطرقه ومؤسساته . كما عقد أكثر من خمسين فصلاً تناول فيها البحث فى مختلف العلوم والمعارف السائدة فى عصره . ولم يستخدم لفظ – الثقافة – .

وربما كان ما يعنيه العلامة ابن خلدون بكلمة الملكة التى تكررت كثيراً فى مقدمته . ما يدل عليه لفظ – الثقافة – ومن ذلك قوله :–

وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع . تكون جودة الاستعمال من بعده . ثم إجادة الملكة من بعدهما .

فبارتقاء المحفوظ فى طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها . وتنمو قوى الملكة بتغذيتها ...

فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر . وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع . والترسيل (٢) . والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول .

---

(١) مشكلة الثقافة مالك بن نبى صـ ٢٠ .

(٢) الكلام المرسل الخالى من الوزن والقافية والمسجوع فيه قافية دون وزن .

وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها (١) .

وعلى هذا أرى أن ما يعنيه العلامة ابن خلدون من لفظ - الملكة - فيه ما يدل دلالة كاملة على ما يدل عليه لفظ - الثقافة - إذ أن كلاً منهما يعني :- ما يكتسبه الإنسان من ألوان المعارف والعلوم التي تحدد طريقته في التفكير . وآراءه في الحياة (٢) .

إذاً : فكلمة - الثقافة - كلمة مستحدثة وافدة من خارج البلاد العربية الإسلامية . ولعل أول استعمال لها كان في مستهل القرن العشرين تقريباً ، فقد جاءت من أوربا ، بدليل أننا نجد فيما كتب حديثاً عن هذا الموضوع في البلاد العربية الإسلامية ، أن الكتاب يقرنون دائماً كلمة - ثقافة - بكلمة :- كلتشر clutrcher مكتوبة بحروف لاتينية ، كأنهم يبتغون بهذا أن يقولوا إن كلمة ثقافة ، لا تكتب إلا بهذا الوضع ، وهؤلاء المؤلفون يعرفون دون ريب ما يفعلون حين يقرنون الكلمة العربية بنظيرتها الأجنبية . فإن معنى هذا أنهم يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في اللغة العربية قوة التحديد التي ينبغي أن تتوافر لكل علم على مفهوم ، فالكلمة إذاً جديدة . أي أنها وجدت بطريقة التوليد ... وهذا هو ما يفسر لنا أنها بحاجة دائماً إلى كلمة أجنبية تقرن بها لتحديد ما يراد منها ... ، ومن هنا نفهم أيضاً أن كلمة - ثقافة - العربية لم تكسب إلى الآن قوة التحديد التي كان لنظيرتها الأوربية ... وإننا مضطرون من أجل هذا إلى أن نقرنها بكلمة - كلتشر clutrher- ، في

---

(١) المقدمة صـ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢) مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي محمد عبد السلام الجفائري صـ ١١٨ ط الدار العربية للكتاب ليبيا تونس ١٩٨٢ م .

مؤلفاتنا كأنها دعامة تشد من أزرها فى عالم المفاهيم) (١) .

وقد أتسع مفهوم هذه الكلمة فى العصر الحديث فأصبحت تستعمل فى معان مختلفة لا تخرج عن المعنى الأصلى ، وإن كان مدلولها العام يتسع لما لا يتسع له المعنى اللغوى .

(١) مشكلة الثقافة مالك بن نبى صـ ٢٤ - ٢٦ .

المبحث الثالث

مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى :-

عند الحديث عن مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى بوجه خاص تواجهنا نفس الصعوبة التى واجهتنا فى التعريف بمفهوم الثقافة فى الاصطلاح العربى بوجه عام ، حيث تتعدد التعريفات والمفاهيم حسب وجهة نظر الباحثين وفلسفاتهم وميولهم . الأمر الذى يخلق شيئاً من الغموض حول مفهوم الثقافة الإسلامية .

ولو نظر الباحثون فى الثقافة الإسلامية إليها ككل شامل متكامل ، لما تعددت الآراء أو اختلفت ، بل تعاونت واتفقت .

ومن أهم وأشمل التعريفات التى عرفت بها الثقافة الإسلامية .

التعريف القائل : [إنها : الشخصية الإسلامية (١) التى تقوم على العقيدة والشريعة والأخلاق المستقاه من مصادر الإسلام الأساسية .

أو هى مجموعة الصفات والمقومات الفكرية والخلقية التى تشكل الإنسان المسلم وفق ركائزه الإسلامية سواء أكان هذا التشكيل على مستوى الصفات الفردية أم الفلسفة الاجتماعية ، أم النظرة الكونية] (٢) .

فالثقافة الإسلامية تطلق ؛ ويراد بها التراث الحضارى والفكرى فى جميع جوانبه النظرية والعملية ، وهو يعنى كل ما أنتجه المسلمون من المعارف العامة المتصلة بالله عز وجل ، والإنسان ، والكون ، والحياة وما بعد الحياة الدنيا من حياة أخرى وغير ذلك مما تمتاز به الأمة الإسلامية والذى أصبح عنوان مجدها ، ورمز قوتها ، ودليلاً صادقاً على أصالة مبادئها .

---

(١) للأفراد والمجتمعات .

(٢) ثقافة المسلم فى وجه التيارات المعاصرة : د / عبد الحليم عويس صـ ١٩ - ٢٠ ط : دار الصحوة بدون تاريخ .

- ﷺ - إلى اليوم . بلى إلى قيام الساعة ؛ بمعنى : [أن الثقافة الإسلامية هى كل ما قام به النبى محمد - ﷺ - وصحابته الكرام . والتابعون بإحسان ومن أتى بعدهم واقتفى أثرهم فى شتى مجالات الحياة الإنسانية والكونية النظرية والتطبيقية . على ضوء كتاب الله تعالى وسنة رسوله - ﷺ - .

وهذه الثقافة ازدهرت فى ظل قيم الإسلام ومبادئه ترتوى بروائه وتتغذى من نبعه الصافى القدسى ، فتشرق على الدنيا كلها داعية إلى الحق والخير والجمال ترقى بالوجدان فتمتعه ، وتنهض بالعقل فتثريه ، لأنها تسترشد بهدى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه محمد - ﷺ - .

* متى توصف الثقافة بأنها إسلامية ؟؟ .

كل ثقافة لا تنطلق من مفاهيم الإسلام الثابتة القاطعة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحة . لا يمكن وصفها بأنها ثقافة إسلامية . لأنّ قولنا : ثقافة إسلامية ؛ يعنى وصفنا إياها بصفة الإسلامية ، وهذا يعنى أننا " قد انتقلنا بالثقافة من الأرض إلى السماء لتصوغها ، وتحدد ملامحها وتوضح أسسها ، وتبين ركائزها ، وتجلو خصائصها ، وشتان ما بين ثقافتين : ثقافة علوية ، وأخرى سفلية . ثقافة تتنزل من عند رب العالمين ، وثقافة نبتت من الطين وفى الطين (١) .

وليس من الإنصاف أن تحسب ثقافة ما على الإسلام . وهى ليست بإسلامية المصدر ، بل توصف بأنها ثقافة - عامة - لم تنطلق من الأسلام وإنما انطلقت من مبادئ ومناهج ومفاهيم أخرى قد تقترب من الإسلام ومبادئه حيناً ، وتبتعد عنه أحياناً أخرى .

---

(١) نظرات فى الثقافة الإسلامية : د / محفوظ على عزام صـ ٢٧ .

والثقافة الإسلامية ليست هى الإسلام نفسه من حيث هو وحى إلاهى معصوم ثابت فى القرآن والسنة .

كما أنها ليس لها قدسية الإسلام نفسه . من حيث هو وحى ، ويجب ألا تختلط به ، لأن خلطها به يؤدى إلى إقحام الفكر البشرى فى الوحى الإلاهى .

وكما أن الثقافة الإسلامية ليست هى الإسلام نفسه من حيث هو وحى إلاهى معصوم . كذلك فإن الإسلام نفسه حيث هو وحى إلاهى معصوم . ليس ثقافة ، لأن الثقافة نتائج أعمال العقل الإنسانى سواء أتمت تلك النتائج فى ضوء هدى الإسلام ، أم ضوء غيره .

غير أن الثقافة إذا اهتدت بهداية الإسلام فإن إمكانية الخطأ فيها تقل كثيراً عن إمكانيته فى الثقافة التائهة التى لا يضبطها ضابط يستند إلى عصمة الوحى الإلاهى وأصوله العامة . لسببين :-

١ - أن الإسلام يضع الحقائق الإلاهية الكاملة أمام العقل فى المجالات التى ليس له أن يلجها .

٢ - إن الهوى المعبر عن حركة الانفعالات الغريزية لدى الإنسان يعيق العقل عن حركته السليمة ويحجبه عن الإدراك السليم لحقائق الأشياء . بل يعطله أحياناً تعطيلاً كاملاً ، فلا يضع الأمور فى أماكنها الصحيحة فينتهى إلى إلحاق الضرر والظلم بنفسه وبغيره .

ولذا فإن الثقافة تحتاج إلى محور ثابت من حقائق الأنفس والآفاق والقيم ...

وهذا المحور الثابت لن نجده إلا فى الوحى الإلاهى المعصوم المتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة] (١) .

---

(١) تجديد الفكر الإسلامى : د / محسن عبد الحميد صـ ١٩ وما بعدها - طـ دار الصحوة بالقاهرة ١٩٨٥ م .

إذاً :

فالثقافة الإسلامية التى نقصدها لا بد لها من أن تنطلق من خلال الإسلام نفسه .

لأنها جزء لا يتجزأ من البناء الإسلامى المتكامل .

إنها خلايا حية فى الجسم الإسلامى .

ومن هنا ينبغى أن تدرس :

من خلال تركيبها العضوى من خلال بيئتها الأساسية .

ومن خلال المفاهيم والمصطلحات الإسلامية

ومن خلال المصادر الأساسية والأصول الثابتة فى الإسلام .

وبهذا تتميز الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى عنها فى الاصطلاحات الأخرى .

المبحث الرابع

الثقافة فى الاصطلاح الغربى المعاصر :-

أولاً : أصل الكلمة فى اللغات الأوربية الكبرى لاتينى هو : كلتشر – clutcher – وقد ظهر هذا اللفظ فى أول ما ظهر فى العصر الذهبى للغة اللاتينية ، ما بين القرن الأول قبل الميلاد ، والقرن الأول بعده ، وكان معناها وقتئذٍ – التقديس . كالتواردجلين ايد ولى : (١) .

ثانياً : كما استعمل اللفظ بمعنى العبادة أو التهذيب الربانى – داى كلتشر – أو تهذيب الروح – كلتشر آنى وى – clutcher any way • على اعتبار عبادة الله صقلا للنفس وتهذيباً لها (٢) .

وهذا المعنى – على ما يبدو – قريب من المعنى العربى لكلمة ثقافة –

ثالثاً : فى أواخر العصور القديمة ، وفى العصور الوسطى تغيرت اللفظة – كلتشر – clutcher من معنى التقديس أو العبادة أو التهذيب الربانى – أى عن الأمور المعنوية إلى الأمور المادية ؛ بمعنى الحرث أو النماء . إذ هى مأخوذة من اللاتينية – كلشان من فعل كولر –coulour أو كالتشورا oualatchura أو – كلشرز – oualuchers بمعنى حرث أو نمى ؛ وقد كانت تعنى تنمية الأرض ومحصولاتها ، وهى الدلالة التى نجدها فى – أجرى كلتشرز – clutchers و – هورتى كاتلو (٣) Horty carlo .

وقد أصبحت هذه اللفظة – كلتشر –clurcher حقيقة فى التهذيب

(١) ثقافة وكتاب : إبراهيم زكى خورشيد صـ ٥ طـ : دار المعارف بمصر ١٩٨٠ م .
(٢) ثقافة المسلم : د / عبد الحليم عويس صـ ١٥ .
(٣) مشكلات الحضارة عند مالك بن بنى : محمد عبد السلام الجفائرى صـ ١٠٣ .

المادى فقط ، مجاز فى التهذيب المعنوى ، خلال هذه الفترة .

ويقال : إن – شيشرون – ١٠٦ – ٤٣ ق . م shishron الخطيب والسياسى والكاتب الرومانى المشهور كان أول من استعمل هذه الكلمة بمعناها المجازى . فسمى الفلسفة – كلتشر –clutcher أى فلاحة العقل أو تنميته .

ولكن هذا الاستعمال لم يلق الرواج كثيراً فى اللغة اللاتينية فى أول الأمر غير أن الحال قد تغير فيما بعد . (١) .

رابعاً : قد تتسع الثقافة فى اللغة اللاتينية فتعنى الزراعة – كلتشرclutcher تربية الزرع – لا كلتشر دى مانسLa Clurcher deman أى زراعة الذرة ، أو تربية النحل – لاكلتشر دى ابيلز –La Clutcher de eppliz .

أى أن لفظة – كلتشر – تعنى التربية بشكل عام ، على أن تكون لغير الإنسان (٢) .

خامساً : اتسع مدلول لفظة – كلتشر –Clutcher فشملت تربية الإنسان أيضاً ، إلى جانب شمولها غير الإنسان ، من زرع وحيوان ، فصارت تعنى أخلاق الناس وعاداتهم – أى نمو أى شيئ يحتاج إلى رعاية خاصة (٣) .

سادساً : فى أوائل العصور الحديثة بدأت تستعمل – كلتشر – فى الإنجليزية والفرنسية مع الشيئ المادى والعقلى ، مع إضافة الشئ المراد تنميته (٤) .

---

(١) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية د / محمود الخالدى جـ ١ صـ ٤٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة : د / عبد الغنى عبود صـ ١٨ .

(٣) المصدر السابق صـ ١٨ .

(٤) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية د / توفيق يوسف الواعى صـ ١٩ .

وعلى هذا نجد أن الثقافة تعنى فى الجانب المادى تعهد الزرع وتنميته وفى الجانب المعنوى تنمية بعض الصفات الحميدة فى الإنسان . كتنمية عقله ، أو تهذيب عقله ، أو تقويم سلوكه .

سابعاً : أخذ الكُتّابُ الفرنسيون مثل – فولتير (١) voltier وزملائه فى القرن ١٨ م – يستعملون مصطلح – كلتشر –clutcher بصورة إجمالية دون . إضافة إلى شيئ معين ، مادى أو عقلى ، وبدون أداة تعريف ، وبذلك أصبحت لفظة – كلتشر – فى معناها المطلق . تعنى : تنمية العقل والذوق] (٢) .

ثامناً : انتقل استعمالها إلى حصيلة هذه العملية أى إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية ، التى تعبر عنها فى العربية لفظة – ثقافة – (٣) – ، فاللفظة – كلتشر–Clutcher زادت اتساعاً بتوجهها إلى أخلاق الناس ، وعاداتهم ، فصارت تعنى فيما تعنيه : تهذيب – تثقيف العقل (٤) .

وصار معنى ثَقِفَ : صار حاذقاً – ثَقَّفَ : هَذَّبَ – ثَقَّفَ : قَوَّمَ – ثَقَّفَ

---

(١) هو فرانسوا فولتير ١٦٩٤ – ١٧٧٨ م – فيلسوف ومفكر فرنسى نشأ فى باريس وتعلم فى كلية لويس الأكبر اليسوعية . دعا إلى الإصلاح ، وكان حر الفكر ، جمعت آثاره فى سبعين مجلداً ونشرت بعد وفاته – الحضارة الإسلامية : د / توفيق الواعى صـ ١٩ .

(٢) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة العربية : د / توفيق الواعى صـ ١٩ .

(٣) فى معركة الحضارة : قسطنطين زريق صـ ٣٣ طـ : دار العلم للملايين – بيروت بدون تاريخ .

(٤) قاموس الجيب : إنجليزى / عربى : إلياس أنطون إلياس صـ ٧١ – المطبعة العصرية بمصر – بدون تاريخ .

عقله : توكالتيفيت وند ماينند Tocaltiviet omes mind(١) أى تنمية عقل الإنسان .

وقد قال جون لوك (٢) : إن الثقافة تعنى تهذيب العقل ، أو تهذيب الإنسان (٣) ، أى كلمة – كلتشر – ازدادت اتساعاً ، فصارت تشمل إلى جانب الأخلاق والعادات : العقل والذوق .

وأول ما استعملت كلمة كلتشر –Clutcher بما يشبه هذا المعنى الأخير .

يعود إلى أوائل القرن التاسع عشر " م " تقريباً ، ولا يزال هذا المعنى هو أحد معانيها السائدة فى اللغة العربية (٤) .

واستعملت – كلتشر – فى اللغة الألمانية فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وانتقل معها معناها الأخير ، وهو التنمية العقلية والأدبية ونتاج هذه التنمية .

تاسعاً : تطور معنى هذا المصطلح عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين وتخلى عن دلالات التنمية أو التحسين بالنسبة للفرد ، إذ أصبح يطلق على أحوال الأقوام بمجموعها . (٥) .

---

(١) القاموس العصرى عربى / إنجليزى : إلياس انطون إلياس ، وإدوارد إلياس صـ ٩٩ ، طـ ٩ المطبعة العصرية بمصر . سنة ١٩٧٠ م .

(٢) جون لوك : ولد بإنجلترا عام ١٦٣٢ م ودرس فى جامعة اكسفورد واستطاع أن يلعب دوراً خطيراً فى حياة الإنجليز ، وذلك لقوة قلمه وذيوع كتاباته حتى وفاته سنة ١٧٠٦ م – فلاسفة أوربيون د / موسى الموسوى صـ ٤١ .

(٣) ثقافة المسلم : د / عبد الحليم عويس صـ ١٦ .

(٤) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية : د / محمود الخالدى جـ ١ صـ ٤٣ .

(٥) الحضارة الإسلامية : عطيه القوصى صـ ٩ مطبعة جامعة القاهرة بالخرطوم ١٩٨٤ م .

وقد تأكد هذا المعنى الأخير فى أواسط القرن ١٩ م عند المؤرخ وعالم الاجتماع الألمانى - كستر كليم -Kastir clim الذى يعتبر مؤسس علم الأنثروبولوجيا الحديث (١) وأصبحت هذه اللفظة تطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات (٢) .

فأصبح هذا التعريف هو الاصطلاح الذى تعنيه كلمة - كلتشر - اليوم عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وقد انتقل هذا المعنى من - كليم - إلى العالم الأنثرولوجى الإنجليزى - إبى - تايلورEby Tailor فكان أول من استعمله باللغة الإنجليزية ، وأثبته فى عنوان كتابه الشهير : الثقافة البدائية - بريمتف كلتشر -Primativ Clutcher عام ١٨٧١ م ، ومنه انتشر فى الأوساط العلمية ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية (٣) ، وقد أصبح هذا المعنى مفهوماً أساسياً - ، إنْ لم يكن المفهوم الأساسى - فى علمى الاجتماع والأنثروبولوجيا فى ألمانيا وأمريكا ، إلا أنه لم يلق مثل هذا الذيوع فى إنجلترا وفرنسا ، ولكنه لم يتركز تماماً ، إذ لم ينف المعانى

---

(١) الأنثروبولوجيا هى : دراسة الجماعات البشرية من حيث كونها كائنات حية ذات عقل وثقافة - راجع المعجم الفلسفى : مجمع اللغة العربية صـ ٢٤ .

(٢) فى معركة الحضارة : زريق صـ ٣٤ .

(٣) فى معركة الحضارة : قسطنطين زريق صـ ٣٤ .

السابقة لكلمة – كلتشر – Clurcher إذ لا تزال تستعمل فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وغيرهما من اللغات الأخرى بمعنى الثقافة الفردية ، أو الثقافة بوجه عام ، وكان من الطبيعى إزاء تقدم العلوم الطبيعية والتطبيقات الصناعية ، أن يعود إليها فى هذه العلوم والتطبيقات معناها الأصلى ، أى عملية إنماء الأشياء المادية كالجراثيم والآلئ بالزرع والتصنيع (١) .

عاشراً : تطور مفهوم كلمة ثقافة فى القرن ١٩ م إذ تعددت حقول الدراسة ومناهج البحث فى علوم الإنسان والأجناس والنفس والاقتصاد السياسى وغيرها من العلوم الإنسانية ولكنها تتلافى فى نقطة واحدة ، إذ أنها جميعاً تهتم بالواقع الاجتماعى ، فكان هذا الاهتمام بداية لسؤال الباحثين عن ماهية الثقافة ، وكان ذلك دافعاً نحو خطوة جديدة فى سبيل تحديد معنى كلمة – ثقافة – إذ أن الباحثين فى القرن ١٩ م فى أوربا كانوا يميلون إلى تحليل الوقائع داخل المعمل ، ومن هنا (كان من الطبيعى أن تدخل فكرة الثقافة إلى العمل بعد أن كانت تعنى مجموع ثمرات الفكر فى ميادين الفن والفلسفة والعلم والقانون ... الخ (٢) .

---

(١) فى معركة الحضارة : قسطنطين زريق صـ ٣٥ .

(٢) مشكلة الثقافة : مالك بن نبى صـ ٣٨ .

تفسير تطور الثقافة في الاصطلاح الغربي

الارتباط بين هذه المعاني لم يأت عشوائياً ، وإنما عن طريق توسع معنى الكلمة وشموله .

أ : لأن الثقافة في الأساس ما هي إلا عناية بالذهن كي يعطي عائداً أفضل ، كما - أن الزراعة - هي عناية بالأرض كي تعطي عائداً أفضل ، والزراعة - أجري كلتشر clutcher - تنمية البذرة في عالم النبات ، والثقافة - كلتشر - Clutcher تنمية الذات في عالم الإنسان ،

ب : كما أن ارتباط كلمة الثقافة بكلمة الزراعة في اللغات اللاتينية يمكن تفسيره تاريخياً ، حيث إن الإنسان لم يبدأ الاهتمام بثقافته إلا بعد أن استقر بالأرض بعد اكتشاف الزراعة ، ومن هنا بقيت الكلمتان مرتبطتان ببعضهما منذ ذلك الوقت ، ويؤكد هذا الارتباط بين الثقافة والزراعة - ول ديورانت -Wool dio rant بقوله : " فأول صورة تبدت فيها الثقافة هي الزراعة إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ، وفي هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة وأعني بها مورداً محققاً من ماء وطعام ، ترى الإنسان يبني لنفسه الدور والمعابد والمدارس ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج .... (١) .

وتطور معنى كلمة الثقافة - كلتشر - من الزراعة في بدئها إلى العلوم والمعارف انتهاء ، له مدلوله ومغزاه ، لأن تطور اللغة ومدلول مفرداتها مرتبط

---

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - جـ ١ صـ ٥ طـ : ٤ - سنة ١٩٧٣ م بالقاهرة ، ترجمة : د / زكي نجيب محمود .

بحياة الإنسان وتطور حاجته ومطالب حياته (١) .

جـ : ويمكن تفسير ذلك فى ضوء النفسية الأوربية لتعرف السر وراء اختفاء كلمة – كلتشر – المشتقة من الأصل اللاتينى ، تستطيع أن تقول : [إن الإنسان الأوربى هو إنسان الأرض ، ولذلك فإن لعمليات الحرث والبذر والحصاد دوراً مهماً فى نفسية هذا الإنسان .. ، وإذن فلا غرابة فى إطلاق كلمة – كلتشر على الإنتاج الفكرى الذى تعاظم وصاحب حركة النهضة الأوربية عن طريق المجاز ، إذ أن الكلمة فى الأصل تعنى الزراعة ، ولكن هذه الاستعارة قد شخصت وصنفت واقعاً اجتماعياً لم يكن مدركاً ، فالاستعارة حين أطلقت على الواقع الاجتماعى ، قد خلقت مفهوماً جديداً هو مفهوم الثقافة (٢) ، وبذلك أصبحت – كلتشر تعنى فكرة ذات حضور ووجود فى الواقع الاجتماعى وبعد ذلك أصبح مفهوم لفظ – كلتشر – معنى مستقلاً فى حد ذاته ... ، وأصبح معناها أولا حالة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الكمال الإنسانى ، وغدت تعنى ؛ ثانياً : الحالة العامة للتطور الفكرى فى مجتمع بأسره ، والمعنى الثالث : هو الكيان العام للفنون ... والمعنى الرابع : هو طريقة شاملة للحياة مادية وعقلية وروحية] (٣) .

ولما تعددت المناهج والطرق فى تحديد ماهية الثقافة اختلفت تعاريف هذا المصطلح باختلاف الزاوية التى ينظر منها الباحث إلى الموضوع .

وعلى الرغم من تفاوت الزوايا التى ينظر من خلالها الباحثون فى مفهوم

---

(١) الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة د / عبد الغنى عبود صـ ٢٠ .

(٢) مشكلة الثقافة : مالك بن نبى صـ ١٨ – ١٩ .

(٣) الثقافة والمجتمع : رايموند وليامز – ترجمة : وجيه سمعان صـ ١٠ طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ م .

الثقافة إلا أنهم يتفقون فى تناولهم قضية الثقافة من حيث طبيعتها ، ومجالاتها النظرية والعملية ، كما أنهم يتفقون أيضاً فى الهدف والمقصد باعتبار الثقافة عملية علمية لها أسس نظرية ، ومناهج تطبيقية كلاهما يؤدى إلى نتائج يركن إليها الباحث .

وبسبب تأثير الثقافة فى الحياة والسلوك ، حظيت باهتمام الباحثين فى مختلف العلوم الإنسانية ولم يقتصر ثراء مفهوم الثقافة على تعدد تعريفاتها ، وتتابع الدراسات عنها ، بل ظهرت تخصصات عديدة تعنى بدراستها مثل : علم الثقافة . الذى يرى الثقافة مسئلة قائمة بذاتها ، أو أن دراستها تشكل مجالا له استقلاليته ، وعلم الأنثروبولوجيا الثقافية . الذى يركز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها ، إضافة إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة القوية بالثقافة ، كالتراكم الثقافى ، والتطور الثقافى ، والتكامل الثقافى ، وأنماط الثقافة ، والاتصال الثقافى ، والتغير الثقافى ، والتخلف الثقافى ، والنسبة الثقافية ، والتنوع الثقافى إلى غير ذلك من المصطلحات والمفاهيم التى يطول الحديث عن ذكرها (١) .

ومن أشهر التعريفات التى وضعها المهتمون بالثقافة و دراستها فى الاتجاه الغربى :-

تعريف الألمان : إذ ستعملوا مفهوم الثقافة على وجهين :-

وجه ذاتى : وهو ثقافة العقل .

ووجه موضوعى : وهو مجموع العادات والأوضاع الاجتماعية والآثار الفكرية والأساليب الفنية والأدبية والطرق العلمية والتقنية ، وأنماط التفكير

(١) مدخل لدراسة المجتمع د / عبد الهادى الجوهرى ، وآخرين صـ ٢٨ - مكتبة نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ١٩٨٠ م .

والإحساس والقيم الدائمة فى مجتمع معين . (١) .

كما استعمل الأمريكان : مفهوم الثقافة بمعنى واسع ، أى أنها مجموع الأفكار والعقائد والمثل العليا ، والقيم التى تسود فى الأمة ويتجلى أثرها فى : آدابها ، وفنونها ، وعاداتها ، ونظمها ، وقوانينها ، وأساليب معيشتها بوجه عام (٢) .

أى أن الثقافة أخذت معنى جديداً يجعل منها مفهوماً يشمل كل شيئ فى حياة المجتمع : طريقة حياته ، وطريقة تفكيره ، ونظرته إلى الحياة وإلى غير ذلك .

وقد عبَّر عن هذا المعنى (مجموعة من علماء الإنسانيات الأمريكيين فى كتاب صدر سنة ١٩٥٢ م بعنوان : الثقافة مراجعة نقدية للمفاهيم والتعريفات - فقالوا : إن الثقافة هى نظام اجتماعى يستمد من تاريخ وتراث مجتمع معين ، ويظهر فى منهج خاص بالحياة - متقدم أو متخلف - يتبعه أفراد ذلك المجتمع ، وهذا النظام يشمل : اللغة والتقاليد والمؤسسات والأفكار الموجهة والعقائد والقيم التى تسود فى الواقع الاجتماعى (٣) .

كما عرفها - كلاكهون - (٤) Cloakhon بقوله : (نقصد بالثقافة جميع مخططات الحياة التى تكونت على مدى التاريخ بما فى ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية وغير العقلية ، وهى توجد فى أى وقت

---

(١) مشكلات الحضارة عند مالك بن نبى صـ ١٠٠ .

(٢) محاضرات فى الوحدة الثقافية : إسماعيل القبانى صـ ٢ طـ : ١٩٥٨ م .

(٣) محاولة لاستكشاف الثقافة الإسلامية د / أحمد عبد الحميد غراب صـ ٥٤٨ بمجلة الأزهر عدد جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ ديسمبر ١٩٨٨ م .

(٤) من أشهر علماء الاجتماع بفرنسا .

كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة) (١) .

كما عرفها - آرنست باركر (٢) Arnist Bat Ker بأنها (ذخيرة مشتركة لأمة من الأمم تجمعت لها . وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ طويل . وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية) (٣) .

أشمل تعريف للثقافة فى الاصطلاح الغربى

رغم تعدد تعريفات الثقافة فى الاصطلاح الغربى (٤) ، إلا أن تعريف - تايلور Tailor لا يزال يأخذ مركز الصدارة ، إذ يعرفها بقوله : [ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف ، وكل القدرات والعادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو فى مجتمع ..) (٥) .

أى أنها تتضمن كل أساليب الحياة الإنسانية : المادية ، والروحية التى اكتسبها الإنسان ، وما زال يكتسبها بوصفه عضواً فى المجتمع .

ووصف - تايلور -Tailor الثقافة بأنها : كل مركب - قد تضمن إحدى سماتها العامة من حيث إن عناصرها المختلفة والمتعددة تشكل وحدة مترابطة ومتكاملة ، فهى لا تتكون من وحدات جزئية متفرقة من الفكر والإنتاج الإنسانى ، وإنما تمثل وحدة مترابطة ومتماسكة ، فالعناصر

---

(١) المفهوم التكاملى للثقافة : د / يوسف مخائيل أسعد . مجلة الثقافة عدد مايو ١٩٨٢ م صـ ٥٨ .

(٢) هو أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج .

(٣) أضواء على الثقافة الإسلامية : د / نادية شريف العمرى صـ ١٤ ط : مؤسسة الرسالة بيروت . سنة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م .

(٤) راجع : صـ ٣٥ من هذا البحث .

(٥) تايلور · أحمد أبو زيد صـ ١٩٥ ط : دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧ م .

المادية فى الثقافة ترتبط بالعناصر المعنوية ، مثل : المسكن والملبس . يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات والأخلاق والتقاليد .

فيجب أن تفهم الثقافة فى أعم معانيها لتشمل النظم السياسية والاجتماعية والتشريعية ، كما تشمل الفنون والحرف ، والأشكال المختلفة للحياة العقلية التى تظهر فى الأدب والفلسفة والميادين الأخرى ، وهذه الأشكال جميعها متصلة بعضها ببعض ، إلى حد ما (١) ، وكل جزء منها مرتبط بالآخر بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويعمل على المحافظة عليه ومساعدته فى أداء مهمته مما يضمن لها جميعها الثبات والاستقرار والاستمرار من جيل إلى جيل .

وقد استقر الناس فى الغرب على أن الثقافة تتضمن كل المعانى السابق إيرادها وهى : أنها التهذيب ، ومحاولة الوصول إلى الكمال ، وأنها جماع المعارف الإنسانية (٢) .

وقد أخبر بذلك – ميسيو آرنولد – Moo Arnold منذ نصف قرن تقريباً فى كتابه الثقافة والفوضى ، فذهب إلى أن الثقافة هى محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما فى الفكر الإنسانى مما يؤدى إلى رقى البشرية (٣) .

وهكذا يتضح من خلال تعريف الثقافة فى الاتجاه الغربى – أن الثقافة عندهم تتسم بسمات منها :-

---

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ : د / بلاس أوليرى : ترجمة د / تمام حسان صـ ١٦ طـ : وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر سنة ١٩٦١ م .

(٢) الحضارة : د / حسين مؤنس صـ ٣٧٥ سلسلة عالم المعرفة بالكويت رقم ١ .

(٣) ثقافة المسلم : د / عبد الحليم عويس صـ ١٦ .

الكلية ، والشمول ، والجمع بين الجوانب المادية والمعنوية فى مجالات الحياة الإنسانية ، وذلك من لدن تعريف - تايلور - تقريباً . الذى تأثر به كثير ممن أتى بعده من الباحثين الغربيين فى هذا الموضوع .

وما دام مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الغربى يتسم بهذه السمات ، فهل معنى هذا أنه يتفق مع مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى ؟ أو أنهما مختلفان ؟ ..

المبحث الخامس

مدى الاتفاق أو الاختلاف بين الاصطلاح الإسلامى والاصطلاح الغربى فى مفهوم الثقافة :-

أ) قد يتفق مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى مع الاصطلاح الغربى فى أمور منها :-

أولاً : مفهوم الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى قد يتفق مع مفهومها فى الاصطلاح الغربى من حيث المفهوم اللغوى للكلمة ...

إذ قد اصطلح فى اللغة العربية على أن لفظة ثقافة - مأخوذة من : (ثقف الشيئ : أقام المعوج منه ؛ وسواه ؛ ثم استعمل على سبيل المجاز ؛ بمعنى : التهذيب ؛ وهو عماد الكلمة فى اللغات الأوربية (١) .

حيث قال - جون لوك (٢) Jon Look ، إن الثقافة تعنى تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان (٣) ، ويؤخذ من هذا : أن لفظة - ثقافة - فى اللغة العربية قد اصطلح عليها للدلالة على المعنى المراد بها فى اللغات الأوربية .

فهذا اللفظ ؛ بهذه الدلالة ؛ مُحْدَثٌ فى اللغة العربية بل هو - فيما أعلم - لم يستحدث ليدل على مفهومه فى الاصطلاح الغربى إلا من وقت قريب ، ففى المعجم الوسيط : (الثقافة : العلوم والمعارف ، والفنون التى يطلب الحذق فيها مج (٤) أى محدثة .

وهذا المعنى للثقافة قصده - فولتير - (٥) Voltair عندما تحدث عن

---

(١) ثقافة وكتاب : إبراهيم زكى خورشيد صـ ٦ .

(٢) راجع صفحة ٣٨ من هذا البحث .

(٣) ثقافة المسلم : د / عبد الحليم عويس صـ ١٦ .

(٤) المعجم الوسيط : جـ ١ صـ ٩٨ .

(٥) راجع صفحة ٣٧ من هذا البحث .

حالة صقل العقل والذوق والفكر ، وعندما تحدث عن المعارف الفنية والعلمية والفلسفية القابلة للتعلم (١) .

ثانياً: وقد يتفق الاتجهان أيضاً فى مفهوم الثقافة من حيث إن كلا منهما ينشد الوصول إلى الكمال والرقى ، سواء أجاء هذا الكمال والرقى عن طريق علوم عملية أم نظرية ، مع اختلافهما فى المنهج والوسيلة .

فقد ذهب – ميسو آرنولد – M . Arnold إلى أن الثقافة هى محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما فى الفكر الإنسانى مما يؤدى إلى رقى البشرية (٢) ،

ثالثاً: كما أن للثقافة فى الاتجاه الغربى إيجابيات يقدرها الإسلام قدرها ، ولا ينكرها أى منصف ، منها على سبيل المثال : –

(الولوع بالبحث العلمى . وروح الاستكشاف والاختراع واحترام الوقت والقدرة على التنظيم والتخطيط واستخدام التكنولوجيا (٣) فى التقدم – بالمفهوم المادى غالباً – وكثرة المؤسسات الثقافية التى ترعى الفكر والعلم وتشجع المفكرين والعلماء (٤) .

ب) اختلاف مفهوم الثقافة فى الاتجاه الإسلامى عنه فى الاتجاه الغربى :–

---

(١) الحضارة : د / أحمد حمدى محمود صـ ٦ طـ : دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م .

(٢) ثقافة المسلم : د / عبد الحليم عويس صـ ١٦ .

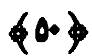
(٣) التكنولوجيا : هى مجموع الآلات والآليات والأنظمة ووسائل السيطرة والتجميع والتخزين ونقل الطاقة والمعلومات ، كل تلك التى تخلق لأغراض الإنتاج والبحث والحرب .. الخ ، وتكمن متطلبات التكنولوجيا وراء العلم الطبيعى – الموسوعة الفلسفية – ترجمة سمير كرم صـ ١٣٩ – .

(٤) محاولة لاستكشاف الثقافة الإسلامية : د / أحمد عبد الحميد غراب – ٥٤٩ .

إن مفهوم الثقافة فى اصطلاح يختلف عنه فى اصطلاح آخر، اختلافاً جذرياًفى جوانب عديدة نتيجةلاختلاف الأمم والشعوب والعقائد والفلسفات .
وفى كل أمة تجد أن الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب مختلفة ، وتجد أن الذوق والروح والمزاج كلها متباينة أحياناً ، لدرجة أن ما تعده أمة مقبولاً محبوباً عندها تجده مرفوضاً تماماً فى أمة أخرى ، ذلك ، أن لكل أمة مقوماتها الأصيلة ، ومبادءها الأساسية التى تختلف باختلاف الدين والتاريخ والقيم والعادات والتقاليد .

فبالنسبة للثقافة الإسلامية والمجتمع الإسلامى تجد عوامل قوية عميقة الجذور فى العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك واللغة ... الخ ، تجعل من المستحيل تطبيق أى مبادئ من أى اتجاه آخر غير مصدرها الأصيل المتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وكذلك بالنسبة للثقافة الغربية فى المجتمع الغربى لهم مُثُلٌ وغايات وقيم وأخلاق وعقائد وتشريعات وأمزجة وسلوكيات ... الخ ، تنبع من عقائدهم ومبادئهم التى تواطأوا عليها نتيجة لظروفهم وأحوالهم الخاصة (١)

إذاً فالثقافة فى الاصطلاح الإسلامى تختلف  فى الاصطلاح الغربى المعاصر ، سواء من حيث المصدر ، أم من حيث المضمون ، أم من حيث الخصائص ، أم من حيث الهدف والغاية :-

أولاً : من حيث المصدر

مصدر الثقافة الإسلامية :-

إن الثقافة فى الاصطلاح الإسلامى لها مصدر معصوم من الخطأ

(١) مثل تشبه الذكور بالإناث والإناث بالذكور والخلوة بالأجنبية . والاختلاط بين الجنسين فى جميع مجالات الحياة دون ضوابط ... الخ .

والتحريف وهو كتاب الله عز وجل وسنة رسوله - ﷺ - وكل ما يدور حولهما من شروح وتفصيلات علمية صحيحة وسليمة . وهى مقيدة بضوء هذا المصدر دون غيره من المصادر التى يشوبها النقص أو التأثر بالهوى ، أو البعد عن التوحيد الخالص ولذا : [فقد رفضت الثقافة الإسلامية منطق اليونان وأقامت منطق القرآن ، كما تجاوزت منهج النظر العقلى ، إلى منهج التجريب العملى ، وفتحت الطريق أمام التقدم العلمى . فقد بدأ المفهوم العلمى عند المسلمين مستمد من القرآن الكريم أساساً ومن دعوته الصريحة إلى النظر فى الكون والاهتمام بالعلم ...) (١) .

مصدر الثقافة الغربية

مصدر الثقافة فى الاصطلاح الغربى ، يختلف عنه فى الاصطلاح الإسلامى اختلافاً شاسعاً .. إذْ هى (نتاج لفكر بشرى قاصر ، غير معصوم ، متقلب ومتناقض ، وقابل للهدم والتغيير ، .

أ) يستمد من الفكر الفلسفى اليونانى ، والقانون الرومانى ، ومن النصرانية المحرفة ، أو من الفلسفة الوضعية) (٢) .

كما أشار الكاتب الفرنسى سيجفريد – Segfraid إلى أنها تتألف من ثلاثة أسس :-

أولها : إدراك المعرفة ، وهو آت عن طريق اليونان أو الإغريق (٣) .

---

(١) التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام : أنور الجندى صـ ٢٢٥ طـ : دار الكتاب اللبنانى – بيروت ١٩٨٢ م .

(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية : د / نادية شريف العمرى صـ ٢٠ .

(٣) هذه الثقافة مستمدة من فلسفة أفلاطون ، وهى فكرة فصل المادة عن الروح ، واعتبار الجسد انفكاكاً للروح ، وعليها أن تعمل جاهدة على الفكاك منه والتخلص من ضواغطه ، كما جعلت من المنطق الأرسطى وسيلتها للمعرفة ، فأصبح هذا المنطق مصدر العلم والمعرفة فصاغت هذه الثقافة حياتهم صياغة خاصة ، جعلتهم لا يحلمون بشيئ إلا بالسيطرة على الدنيا كلها . من خلال السيطرة على كل الوسائل والغايات الإنسانية التى تخدمها ولم يعد لحَمَلَةِ هذه الثقافة من هدف ظاهر أو باطن ، فى الحياة إلا النمو الاقتصادى والنفوذ السياسى والعسكرى الذى أصبح خطراً يهدد العالم بالفناء – راجع أسلمة المناهج والعلوم : أنور الجندى صـ ٨ دار الاعتصام طـ دار الاعتصام بمصر ١٩٨٦ م -.

وثانيها : إدراك الفكر ، وهو آت كذلك عن طريق الإغريق فى بعض جوانبه ، أما بقية تلك الجوانب فمنبثقة عن تعاليم الدين اليهودى أو النصرانى المحرف .

وثالثها : الاصطلاحات الخاصة الضرورية للإنتاج ، والنابعة من الثورات العلمية والصناعية التى اندلع لهيبها فى القرن ١٨ م) (١) .

فهذه الثقافة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجذورها التاريخية أى بأصولها فى التراث الإغريقى والرومانى ، ومن هنا يبرز اهتمامها الشديد باللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما ، وبالفلسفة اليونانية وبالأدب اليونانى القديم الذى يشمل الأساطير اليونانية والمسرح اليونانى ، وكذلك اهتمامه الشديد بالفنون اليونانية والرومانية الوثنية التى تمجد الجسد والشهوة وبخاصة فنون النحت والموسيقى والرقص والغناء (٢) .

ب) كما تستمد هذه الثقافة مصدرها من الطبيعة والحقيقة والواقع والحس ، وكلها سواء كمصدر مستقل للمعرفة ، بل كمصدر

---

(١) حول مبادئ وقيم إسلامية : د / محمد غلاب - ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ١٩٧٠ م .

(٢) محاولة لاستكشاف الثقافة الإسلامية : د / أحمد عبد الحميد غراب صـ ٥٤٩ .

فريد للمعرفة اليقينية ، أو المعرفة الحقة.

ومعنى تقرير الطبيعة على هذا النحو ، أن الطبيعة هى التى تنقش الحقيقة فى عقل الإنسان . وهى التى توحى بها وترسم معالمها الواضحة ، وهى التى تُكَوِّن عقل الإنسان .

والإنسان لهذا لا يملى عليه من خارج الطبيعة مما وراءها ، كما لا يملى عليه من ذاته ، إذ ما يأتى من ما وراء الطبيعة - خداع للحقيقة - وليس حقيقة ؛ وما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة ، وليس حقيقة أيضاً ...

وبناءً على ذلك : الدين - وهو وحى ما بعد الطبيعة - خداع !!

وكذلك المثالية العقلية وهْمٌ لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى . إذْ هى تصورات الإنسان عن نفسه من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التى يعيش فيها وتدور حوله ... (١) .

ونتيجة لإنكار كل وسيلة معرفية غير الحواس (أنكرت الفلسفات الأوروبية المعاصرة كل وجود غير حسىٍّ ، كوجود الله ، والملائكة والروح والشيطان ، ووقع التصادم ، والتناقض التام بين العقائد الدينية الأساسية) (٢) .

وعلى هذا نجد أن الثقافة الغربية المعاصرة مستمدة من تراث مزدوج بين القديم والحديث ، وقد أدى ذلك التركيب والازدواج إلى كثير من التناقضات والمواقف الثقافية والفكرية المضطربة التى لم تكشف بسهولة ، لأن الثقافة

---

(١) خصائص التصور الإسلامى : سيد قطب . صـ ٦٢ - ٦٣ طـ دار الشروق بالقاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٢) نقد الثقافة الإلحادية : د أحمد عبد الرحمن إبراهيم صـ ٢٦ .

الغربية اليوم هى ثقافة الإنسان الغالب القوى المسيطر على العالم الحديث ، لقد جعلت هذه الثقافة ، الإنسان الفرد ، مركز الدائرة فى كل شيئ ، وجعلت منه ومن لذّاته ورغباته جوهر كل موضوع ومقياس كل شيئ .

وهكذا فإننا نجد اضطراباً وخلطاً فيما تعتبره الثقافة الغربية مصدراً لها مما يؤدى إلى اضطراب فى فكر الإنسان ، وفى نفسيته . مما يورث كآبة نفسية فى إحساس الفرد ، أو انطلاقاً شديداً لا يحده ضابط ، ولا توقفه قيمة (١) .

وقد بدأت هذه الثقافة من خلال تحديات مجتمعها ، ومرت بأطوار مختلفة ، واستجابت لظروف وأوضاع تتعلق ببيئتها .

جـ) هذا بالإضافة إلى أن هذه الثقافة فى أول أمرها محاولات لتحل محل الدين ، ثم أصبحت معارضة له حين عجز الدين عن العطاء فتكونت هذه الثقافة وهذا الفكر الغربى معتمداً على : [مذاهب اجتماعية إنسانية معظمها منحرف ...

... ففى الجانب الاقتصادى تجد فردية فى الفكر الرأسمالى . وجماعية فى الفكر الماركسى . مع إباحة الربا .

وفى التربية . فصل الدين والأخلاق عن مفاهيم التربية والتعليم .

وفى السياسة .. فصل الأخلاق عن السياسة .

وبالنسبة للأخلاق .. هى عبارة عن قيم ذاتية منفصلة عن الدين ، وليس لها إلزام خُلُقى .

الفن : عبارة عن إنطلاق كامل من مختلف القيود الأخلاقية والاجتماعية .

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية أ . د / نادية العمرى صـ ٢١ .

القانون : تحرر كامل فى مجال العلاقة بين الرجل والمرأة ، وإطلاق الحرية الشخصية بلا حدود .

أما الدين عندهم . فشيئ غامض كدين الطبيعة أو الإلحاد أو الوثنية أو المادية ، أو غيرها] (١) .

ثانياً : من حيث المضمون :-

مضمون الثقافة الإسلامية :-

تختلف الثقافة الإسلامية عن الثقافة الغربية من حيث المضمون ، لأننا نجد الإسلام عقيدة شاملة تعطى تصوراً صحيحاً ، ويقيناً صادقاً ، وحقائق ثابتة ، وموحدة ، وصالحة لكل زمان ومكان فى تنظيم علاقة الإنسان بخالقه ، وعلاقته بالمخلوقات ، فى شتى شئونها ومبادئها ونظمها ، وعلاقته بما فى هذا الكون من عوالم تخفى علينا رؤيتها وإدراكها ، وعلاقته بما وراء هذه الحياة من حياة أخرى فى عالم آخر ،

مضمون الثقافة الغربية :-

إن الثقافة الغربية ثقافة محدودة ، ولجانب من جوانب الحياة ، عقائدى ، أو اقتصادى ، أو اجتماعى ، أو سياسى ، أو فلسفى ، أو أخلاقى ، مع اختلاف وتباين وعدم اتفاق بين هذه الجوانب أو المجالات ، كما أنها منقطعة الصلة بين الماضى أو المستقبل ، متقلبة لا تثبت على حال ، ولم تتفق عليها الإنسانية ، بل ويمكنها الاستغناء عنها . وتبديلها من حين إلى حين ، كما أنها لا تستطيع أن تعطى تفسيراً لما وراء المادة ، وإذا أعطت فبغير علم ولا هدى ، وصلتها بالحياة الآخرة مقطوعة ، أو موصولة بها بأوهام وخيالات ، وأساطير ، وعلى هذا فإن هذه الثقافة الغربية لا تحقق الانسجام أو الوفاق

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية : د عبد الغفار عزيز صـ ٤٩ ط القاهرة ١٩٧٧ م .

بين الكائنات

فالظاهر من كل هذا أن الثقافة الغربية وصلت بعد تطور طويل منذ عصر النهضة حتى اليوم ، إلى المادية التى اتخذتها أساساً لها فى كل أمورها ، وفى ضوء هذه المادية ، تكونت المفاهيم العقائدية والفلسفية والسياسية والاجتماعية إلى أخر هذه المفاهيم التى يقيمها على خمسة مبادئ أساسية وهى :-

(لا إله ... الحياة مادة ...الإنسان حيوان ...الحياة منفصلة عن الدين ... إنكار الغيبيات والآخرة ، وهنا يتمثل الفصام بين الروح والمادة والعقل والضمير ، والله والإنسان ، والدين والحياة .

... فالجنس لا علاقة له بالقيم ، السياسة لا علاقة لها بالأخلاق ، والاقتصاد لا صلة له بالدين] (١) .

وكما افتقدت الثقافة الغربية الجانب الدينى فى مضمونها ، افتقدت كذلك الجانب الإنسانى والخُلُقى والروحى ، فارتقت بالآلات والجوانب المادية فى الحياة وأزالت الكثير من المتاعب والصعوبات ، ووفرت الكثير من وسائل الراحة والرفاهية .

أما الإنسان فى جانبه الإنسانى والخُلُقى والروحى ، فليس له اعتبار فى هذه الثقافة وعلى هذا (يبقى غياب الثقافة الإنسانية - التى تعالج الإنسان مادياً ومعنوياً - عن الاتجاه الغربى علة لكثير من مشاكله الكبرى ومشاغل وهموم أهله الصغيرة والكبيرة التى ما فتئت آخذة بالتكاثف والانتشار ،

(١) أصالة الفكر العربى : أنور الجندى صـ ٥٠ طـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

وسبباً لمعظم ظواهر القلق والتمزق التى تجتاح هذا العالم ...] (١) .

وكل الأبحاث والدراسات المنصفة تقرر أن الفكر الغربى يخوض أزمة عنيفة ، وأن المجتمع الأوروبى يعانى أزمة قاسية فى مواجهة أمواج عاصفة من القلق والتمزق والضياع وانفصام الشخصية ويردون ذلك كله إلى غلبة الطابع العقلى المادى الحسى ، على الظواهر النفسية والروحية والدينية ، وقد حدد الفكر الغربى موقفه تماماً فى هذه المرحلة من كل القضايا على أساس التجزئة والانشطارية ، فاعترف بالعلم والعقل والمادة ، وأنكر ما سوى ذلك من مقدرات النفس البشرية الجامعة للمادة والروح والعقل والقلب) (٢) .

من أجل ذلك كله كان الإنسان الغربى يعيش فى أزمة وصراع وقلق ووهم لأن ثقافته بعيدة عن الأمن والإيمان والاطمئنان الروحى .

ففى بحث لأستاذ فى كلية الآداب بجامعة – تورينو – فى شمال إيطاليا يدعى – نيقولا إينبانو – Nicola Enbano عنوانه : " مفارقات الصناعة الفنية " يقول فيه : [إن التقدم التكتيكى وفر للإنسان اليسر والسهولة لكنه صرفه عن اعتبار الحياة الروحية ، وبهذا سلبه الميزة الحقيقة الوحيدة التى يمكنه أن يستخلصها من اليسر والسهولة – ألا وهى أن يستطيع تكريس نفسه لتربية ذاته ، على نحو أفضل) (٣) .

---

(١) بين الحضارة والمدنية .. على القريشى – صـ ٣٥ دار المعارف – بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

(٢) أخطاء المنهج الغربى الوافد : أنور الجندى صـ ٤٣٣ ، ٤٣٤ – ط : دار الكتاب اللبنانى – بيروت ١٩٨٢ م .

(٣) بين الحضارة والمدنية : على القريشى صـ ٣٧ وراجع الثورة الفكرية المعاصرة فى الغرب : د عبد الرحمن بدوى صـ ١٢ مجلة الفكر المجلد الأول العدد الثانى ١٩٧٠ م .

وأعلن - آرنولد توينبى (١) - Arnol Tonimby أن الثقافة فى الاصطلاح الغربى مصابة بالخواء الروحى الذى يحول الإنسان إلى قزم مُشوَّه يفتقد عناصر وجوده الإنسانى ويعيش الحد الأدنى من حياته ، وهو حد وجوده المادى فحسب ، مما يصيبه بأمراض السأم الروتينية ، وفقدان الهدف من كل ما يأتى : خواء روحى ، يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف ، كما يركض القطعان دونما تفحص لمعنى سيرته الهوجاء ، كما يضطر المدركون أحياناً إلى إعلان إشفاقهم عليه (٢) .

كما يقول - الدرس هيسكلى - (٣) Eldris إن الثقافة الغربية قامت على التفوق الذهنى وحده وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوة المادية والترف ، ولكنها أهملت تربية عواطفه وأخلاقه ، وفضائله الروحية ، ولم تهتم بتهذيب الإنسان التهذيب الروحى (٤) .

ويفند د / الكسيس كاريل هذه الثقافة المادية ومعلناً أنها لم تسعد الإنسان ، بل زادته شقاءً وانهياراً قائلاً : يجب أن يكون الإنسان مقياساً

---

(١) مستشرق إنجليزى كتب كثيراً عن الإسلام ورسوله - ﷺ - ومن أشهر كتبه - دراسة فى التاريخ - ويعتبر من أحسن الدراسات الموضوعية - للتاريخ فى العصر الحديث فى نظر كثير من الشرقيين خاصة العرب - راجع الفكر الإسلامى د / محمد البهى صـ ٤٧٨ .

(٢) صفحات مضيئة من تراث الإسلام : أنور الجندى صـ ٤١ ط : دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٩ م .

(٣) من علماء الطبيعة الإنجليز ولد سنة ١٨٥٢ م . له كتاب - مرتبة الإنسان فى الطبيعة - ناصر داروين وكان من أكبر المؤيدين فى الترويج لمذهب داروين فى التطور - راجع أصل الأنواع صـ ١١٥ .

(٤) الإسلام والثقافة الدينية فى أوربا : عبد الفتاح مقلد الغنيمى صـ ١٩٤ ط : عالم الكتب بالقاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

لكل شيئ ، ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه . لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته ، ومن ثمَّ فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية ، فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا ، إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً ، إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات ، والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذْ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها ، وحقيقة الأمر أن مدنيتنا بكل المدنيات التى سبقتها ، أوجدت أحوالاً معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة ، إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد ، والعلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المسيطر هو معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا ....) (١) .

كما يقول : (إن الثقافة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب لأنها لا تلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل صـ ٤١ ، ٤٢ .

خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ...) (١) .

إن هذا الكلام للدكتور – كاريل – يشير إلى الخطأ الجسيم الذى قد ينجم عن مجهود بشرى مقصود أو غير مقصود ، لأن هذا المجهود وإنْ حقق تقدماً مادياً ، فهو حتماً يؤدى إلى خواء نفسى محقق ، ولذلك فلم تستطع الثقافة الغربية أن توجد التوازن بين مطالب الجسد ومطلب الروح والعقل ، فحدث الاختلال والاضطراب ، فبقدر ما تتزايد قدرات الإنسان الأوروبى فى مجالات العلوم والفنون وشتى مجالات الفكر ، يتزايد فى الوقت نفسه انحداره الروحى والأخلاقى ، وإحساسه بالضياع النفسى والقلق والشعور بعدم الاستقرار والطمأنينة وإحساسه بالاضطراب بين الواقع الذى يعيشه غارقاً فى المادة واللهو والعبث ، وبين نداءات فطرية خفية ، وبين الحين والآخر تدعو . للالتزام بشئ من القيم والمثل فى حياته .

(وفى هذا التيه الذى يتخبط فيه الإنسان الغربى المعاصر ، حاول أن يتقمص شخصيات مختلفة لعلها توصله إلى شاطئ الأمان ، وتمنحه سعادة ضائعة وراحة نفسية مفقودة ، فتقمص الشخصية العلمية التى حددها – هيسكلى ، ثم الشخصية الجنسية التى رسمها – فرويد – . ثم شخصية الرجل الاقتصادى التى وصفها ماركس ، وفى جميع هذه المحاولات لم تتحق للفرد الغربى ما يريد ولم يصل إلى السعادة الحقيقية ، ولا إلى الاطمئنان

(١) المرجع السابق : صـ ٣٧ .

النفسى ، بل على خلاف ذلك زادته هذه المحاولات وتلك الثقافات حيرةً وقلقاً وضياعاً) (١) .

حتى أغفل الأوربيون المُثُل الأخلاقية العليا ، وحادوا عن الحق والخير والنور ، ونشأ فيهم الانحلال العقلى وسيطرت عليهم النزعات البهيمية ، وأوشكت الكشوف العلمية الرائعة التى حققوها أن تكون وبالاً ساحقاً عليهم ، وستقضى عليهم ، القضاء الأخير ما لم يفيئوا إلى الصواب ، ويرجعوا إلى الإيمان ، ويوازنوا بين المادة والروح ، وبين الجسم والنفس . وبين الدنيا والدين ، وقد عبَّر عن هذه الحال " رجاء جارودى " (٢) حين قال : [هذه الثقافة الغربية تقودنا إلى الطريق المسدود ، وإذا تابعنا نفس الخطة ؛ فمعنى ذلك ، الانتحار لأهل هذا الكوكب ، لأن من دعائمها :-

١) الفصل بين العلم والحكمة ... أى الفصل بين الوسائل والغايات .

٢) تحويل جميع الحقائق إلى مفاهيم مغلوطة تبعد الجمال والحب والعقيدة وتفقد الحياة معناها .

٣) تجعل الأفراد والجماعات هى المركز الأساسى للاهتمام .

٤) إنكار الألوهية ، أى السعى للتخلص من متطلباتها بإبعاد الإبداع والحرية والأمل (٣) .

وعملية التوازن بين مطالب الإنسان المختلفة فى الثقافة الإسلامية فى

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية : د / نادية العمرى صـ ٥٣ .
(٢) أديب ومفكر وفيلسوف فرنسى معاصر أعلن إسلامه فى ١١ رمضان ١٤٠٢ هـ .
(٣) الإسلام هو الحل الوحيد للأزمات المتصاعدة فى الغرب : رجاء جارودى صـ ١٣ - ١٤ طـ المختار الإسلامى ١٩٨٦ م .

مواجهة التجزئة فى الثقافة الغربية ، مسألة لها أهميتها الكبرى ، فهى تمثل أكبر نقطة خلاف بين عالمَيْن وفكريْن وثقافتيْن .

فالفكر الغربى يقوم على تجزئة الكون والطبيعة ، والفصل بين الله والطبيعة ، والعلم والدين ، أما الفكر العربى الإسلامى فيقوم على أساس وحدة الكون ، وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، والإسلام هو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظام الكون ، وأن الإسلام هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة (١) .

ومن هنا يظهر جلياً أن الثقافة فى الإسلام تقوم على الشمولية والتكامل والوسطية والتفاعل جمعاً بين العلم والعمل ، أو النظر والتطبيق أو المادة والروح ؛ فإذا كان طابع الفكر الإسلامى العربى هو التكامل والوسطية والحركة ، فذلك أمر يعطى صورة النظرة الشاملة إلى الكون والحياة والوجود ، بينما يتجه الفكر الغربى إلى الجزئية والنظرية المنفصلة لكل علم ، ولكل فن ، ومن هنا يبدو الخلاف بين المفهوميْن والنظريتيْن (٢) .

نتيجة ثنائية المضمون فى الثقافة الغربية

هذه الثنائية فى الثقافة الغربية ، كانت لها أسوأ الأثر على المجتمع فى شتى مجالاته ، كما كانت سبباً فى شقاء الإنسان الغربى ، إذْ نشأ عنها انقطاع الصلة بين الإنسان كإنسان ، وبين القيم الخُلُقية ، والمُثُل العليا ، وأصبح الإنسان عبداً لغرائزه ونزواته ، لأنها أدت إلى إشباع جسد الإنسان

(١) أصالة الفكر العربى : أنور الجندى صـ ٤٩ .
(٢) السابق صـ ٧٩ .

فإذا بهذا الإشباع نفسه يؤدى بالإنسان إلى جوع قاتل ، ويدفع به إلى شقاء لم تعرف له الإنسانية مثيلاً ، حيث :-

"تدل الإحصائيات فى أمريكا ، على أنه فى كل خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار ، وفى كل مائة وعشرين ثانية يصاب شخص بالجنون (١) .

وبجانب الانتحار والجنون ، هناك القلق ، وما يترتب عليه من أمراض نفسية وعصبية . وخطره أشد وأخطر ؛ إذْ أن :-

"شخصاً من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرض للإصابة بانهيار عصبى ، مرجعه فى معظم الأحيان إلى القلق (٢) .

وما يؤدى إليه من - عسر الهضم العصبى ، وقرحة المعدة ، واضطرابات القلب والأرق ، والصداع ، وبعض أنواع الشلل ... " (٣) ومعظم حوادث الانتحار وكثير من حالات الجنون [يمكن على الأرجح] قطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيئ من الأمان والاطمئنان ، وسكينة النفس التى يجلبها الدين ، وتجلبها الصلاة " (٤) .

- ولا حل لهذه الأزمة إلا بالرجوع إلى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الأساس الوحيد الذى يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه وليست هناك من أسس أخرى (٥) .

وبحثاً عن السعادة النفسية اتجه كثير من الأوروبيين لمقاومة النزعة

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة .. ديل كارنيجى - ترجمة : عبد المنعم بن الزيادى صـ ٢٩١ طـ : الخانجى بمصر . بدون تاريخ ..

(٢) المرجع السابق صـ ٥٧ .

(٣) المرجع السابق صـ ٥٧ .

(٤) السابق صـ ٢٩١ .

(٥) الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان صـ ١٥٨ طـ المختار الإسلامى بالقاهرة ١٩٧٣م .

المادية فى الثقافة الأوروبية ، ومن أشهرهم

١) الكسيس كاريل (١) Alexis Carbil إذ يقرر بوضوح : [أن النزعة المادية : هى سبب الشر والخطأ ، والقصور فى الثقافة الأوروبية ، وأن الخلاص من المادية هو الطريق القويم لتصحيح كل الأخطاء والانحرافات ، وإحداث التغييرات الجذرية الكبرى المطلوبة فى الحياة الأوروبية) (٢) .

ويدعو – كاريل – caril - إلى أن يسير الإنسان فى طريق الدين ، وأن يحاول معرفة الله عن طريق الدين ، لا عن طريق التأمل الفنى ؛ فيقول : (ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل ، ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط والجبال والسحب وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء ، والمبادئ السامية التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التى تعبر عن القوانين الطبيعية ، وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التى تكافح لبلوغ مثل أدبى عالٍ ، وتبحث عن النور فى ظلمات هذا العالم ، وتسير قُدُماً فى طريق الدين ، وتنبذ نفسها لكى تفهم الأساس غير المنظور لهذا العالم ....

إن الشخص المتجرد من حب متاع الدنيا يشعر بالله ، بمثل السهولة التى يشعر بها بحرارة الشمس ، أو بعطف أحد أصدقائه (٣) .

ويعتقد – كاريل – Caril أن الدين الصحيح وعبادة الله عز وجل يمكن

---

(١) طبيب فرنسى ولد ١٨٧٣ م ومنح جائزة نوبل فى الطب ١٩١٢ م ومن أشهر كتبه : الإنسان ذلك المجهول ، وتوفى فى شهر نوفمبر ١٩٤٤ م .

(٢) نقد الثقافة الإلحادية : د / أحمد عبد الرحمن إبراهيم صـ ٢٢ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل – ترجمة شفيق أسعد فريد صـ ١٧١ مكتبة المعارف – بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

بها شفاء بعض الأمراض فيقول : [إن شفاء المعجزات نادر الحدوث ولكن على الرغم من حالاته القليلة ، فإنه يدل على وجود عمليات عضوية وعقلية لا نعلم عنها شيئاً ، إنه يدل على أن لحالات عبادة معينة مثل الصلاة تأثيرات قاطعة إنها حقائق قوية لا يمكن التهوين من شأنها ، ويجب أن يحسب حسابها] (١) .

٢) كما يقرر تلك الحقيقة البروفيسور "يانج " Professor Yang العالم النفسى الشهير (١٨٧٥ م – ١٩٦١ م) بقوله : (طلب منى أناس كثيرون من جميع الدول المتحضرة مشورة لأمراضهم النفسية فى السنوات الثلاثين الأخيرة ، ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم – وهو ما بعد ٣٥ سنة – إلا الحرمان من العقيدة الدينية ، ويمكن أن يقال : إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيئ الذى تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها ، فى كل عصر ، ولم يُشْفَ أحدمن هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية) (٢) .

وهذا لا يتم إلا بمعرفة الله عز وجل ،

٣) كما أكد ذلك الدكتور / بول أرنست أدولف– Powl Arnist Adolf بقوله : (تعرفت أثناء دراستى بالكلية الطبية على التغييرات التى تطرأ على أنسجة الجسم بعد الإصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أعراضاً محددة تطرأ على هذه الأنسجة مما يؤدى إلى اندماج الجروح وشفائها وعندما أصبحت طبيباً بعد إتمام دراستى ، كنتُ جد مقتنعاً بكفاءتى ، وأننى أستطيع أن أحقق نتيجة موفقة بالتأكيد ، باستعمال

(١) المرجع السابق : صـ ١٧١ .

(٢) الإسلام يتحدى ... : وحيد الدين خان صـ ١٦٣ .

الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما أصبت بصدمة كبيرة حيث فرضت علىَّ الظروف أن أشعر أننى أعرضت عن أهم عنصر فى علم الطب . ألا وهو : الله ... (١) .

٤) كما اعترف – برتراند راسل – Batranr Rassel : قائلاً (إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها فى عالمنا الحديث ، واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة : السعادة ؛) (٢) .

هذه الظواهر هى فى الواقع دلائل على أن الثقافة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الشقاء ، وقد ضللتها عن طريقها التى لم يكن منها بد لمواصلة السيرة .

وليس معنى ذلك : أن العلاج لهذه المآسى التى يعيشها الإنسان الغربى تكون بالانقلاب من المادية القاتلة إلى الروحانية المفرطة – هجر الدنيا ، والملذات كلها – لأن هذا البديل أيضاً غير واقعى وغير عملى .

فحينما سار الإنسان الأوربى على هذا البديل فى القرون الوسطى بتوجيه من الكنيسة الغربية ما سار عليه إلا تحت سيطرة الكنيسة وبطشها ، وخوفاً من محاكم التفتيش التابعة للكنيسة .

وبناءً على هذا : أستطيع أن أقول : إن الإلحاد هو الخاصية الثقافية الأولى والأساسية فى الثقافة الأوروبية المعاصرة ، باعتبار أن الإلحاد هو الملازم الضرورى للنزعتين : الحسية والمادية (ولا تزال الثقافة الأوروبية

---

(١) المرجع السابق صـ ١٦١ .

(٢) السابق صـ ١٥٨ .

بعيدة عن الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وعن الإقرار بأن الوحى مصدر من مصادر المعرفة) (١) .

وهذا هو سبب ما يعانى منه الأوربيون من الشقاء النفسى والفراغ الروحى حتى قرر - أندريه مالرو - Andria Malrow القول : (إننى بدأت أفقد إيمانى فى أنه يوجد الآن عصر من النهضة ، لأننى أؤمن بأنه إذا استمرت أزمتنا الإنسانية بغير حل ، فإن نهضتنا الثقافية مستحيلة) (٢) .

وحينما قوى الإنسان الأوروبى وضعفت الكنيسة عن مواجهة مطالب الحياة ، ثار على هذه الحياة الروحية المفرطة بطريق مضاد ، هو طريق المادية القاتلة ، فاهتم بالجسد ومطالبه ، وأهمل الروح والقيم (٣) .

وهكذا نجد أن الإنسان الغربى حينما سار على الجانب الروحى وحده فشل فى حياته ، وحينما سار على الجانب المادى وحده ، فشل أيضاً ، يمسى فى ترقب ويصبح فى خوف ووجل ، لأنه (وإنْ توفرت له وسائل الرفاهية والمتعة المادية) لم يتوفر له الهدوء والراحة النفسية والطمأنينة والاستقرار فى نفسه ولا فى بيته ولا فى مجتمعه كله ، فأصبح العالم اليوم على شفا حفرة من النار ، فمن ينقذه منها ؟ ؟!

البشرية اليوم فى حاجة عارمة أن تلقى بزمامها إلى أمة ذات رسالة وذات دين يطفئ سعارها المادى ، ويروى ظمأها الروحى ، ويملأ فراغها

---

(١) نقد الثقافة الإلحادية صـ ٢٤ .

(٢) أزمة الشباب وهموم مصرية : د / نعمات أحمد فؤاد صـ ٢٠ - كتاب الحرية . عدد ٨ يناير سنة ١٩٨٦ م .

(٣) مستقبل الحضارة : يوسف كمال محمد صـ ١٣٠ بتصرف .

العـقـائدى ، ويخلصـهـا من أخطار القلق الفكرى والصـراع النفـسى والاضطراب الاجتماعى والتناحر السياسى ، والتنافس الحربى ، ترى من تكون هذه الأمة التى يشرئب إليها عنق الزمن ، ويرنو إليها بصر التاريخ ؟

لا بد أن تكون هذه الأمـة أمـة ذات رسـالة دينيـة ، تسـتطيع أن توائم تطورات الزمان والمكان ، ولا يوجد هذا فى رسالة دينية غير الإسلام . خاتم الرسالات السماوية الصحيحة فهو الذى يستطيع أن :-

"يقدم للنفس عقيدة تلائم الفطرة ، ويقدم للمجتمع نظاماً يلائم تطورات الحياة ، ويقدم للإنسانية أمة وسطاً تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر" (١) .

وهنا يأتى دور الأمة الإسلامية بثقافتها الإسلامية ، لإنقاذ ما تعانيه البشرية من ويلات ونكبات فى العصر الحديث ، وإلى ما شاء الله تعالى ...

نتيجة الفارق بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية

لقد كشف غير واحد من الباحثين عن هذا الفارق العميق الواضح بين وجهتى النظر الإسلامية والغربية فيقول - ليوبولوفايس - محمد أسد (٢) : [إن وجهة النظر الإسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية ، إذ أن الإسلام يعتبر وجود الإمكان الروحى لمجموع البشر صفة كامنة ، أى

(١) رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد : د / يوسف القرضاوى صـ ٢٢ ، ٢٦ - مكتبة وهبة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(٢) مستشرف نمساوى أشهر إسلامه وأنشأ مع غيره مجلة الثقافة الإسلامية فى حيدر آباد ١٩٢٧ م وكتب فيها دراسات وافرة معظمها فى تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام ، له كثير من المؤلفات منها : الإسلام على مفترق الطرق ، ومنهاج الحكم فى الإسلام ... راجع المستشرقون : نجيب العفيفى جـ ٢ صـ ٢٩١ .

أنه شيئ وضع فى بناء النفس البشرية ، ولا يعلم أبداً - كما يفعل الغرب - بأن النفس تخضع لعملية تبدل ارتقائى كالذى يحدث للشجرة فى نموها ، ذلك لأنه أساس تلك النفس - أى النفس الإنسانية - والخطأ الأساسى فى التفكير الأوروبى الحديث ناتج عن اعتبار التزايد فى المعرفة المادية ، ومن الرفاهية مرادفاً للترقى الإنسانى الروحى والأدبى ، وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ، ومخالفة لها ، أما الإسلام الذى يبنى على أوجه من الإدراك المطلق ، فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل التفانى (١) .

[فالفجوة التى تفصل بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوروبية ، فجوة واسعة جداً .

والمذهب الحسى المادى هو النقيض الكامل لمبادئ الإسلام وعقائده .

ولهذا فإن محاولات التوفيق بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوروبية سيكون مآلها البوار ، لأنها تحاول الجمع بين النقضين] (٢) .

حيث (إن الثقافة الإسلامية هى الثقافة الوحيدة التى تُعَدّ فيها العقيدة هى أساس كل شيئ وقاعدة كل أمر ... وليست - كما فى الثقافات الأخرى - ظاهرة كبقية مظاهر الحياة المختلفة المتشعبة ... سياسة - اقتصاد اجتماع ، إدارة ، قضاء ... الخ ، وهذا يعنى : أن كافة العلوم والمعارف لا بد أن تكون فى إطار العقيدة ملتزمة بأركانها وقواعدها غير متجاوزة حدودها ، ومن ثَمَّ لا يكون هناك - فى الثقافة الإسلامية مكان لنظرية

---

(١) أصالة الفكر العربى : أنور الجندى صـ ٥٠ .

(٢) نقد الثقافة الإلحادية : د أحمد عبد الرحمن صـ ٢٥ طـ١ القاهرة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م .

طبيعية أو وجودية ، ولا فكرة رأسمالية أو ماركسية ، وهذا هو جوهر الفرق بين الثقافة فى ملة الإسلام ، وفى تصور ما عداها من الملل والنحل ، التى تجعل العقيدة عنصراً ومظهراً من مظاهر الثقافة ، فتنزل بهما إلى حضيض الجزئيات الضئيلة التى تؤلف مع بعضها البعض ، كيان الثقافة - غير الإسلامية - الخاضعة لتغيرات المفاهيم والتصورات البشرية . وهذا المعنى متناف أشد التنافى مع سماوية العقيدة وألوهية الدين) (١) .

ثالثاً : من حيث الخصائص :-

تختلف الثقافة الإسلامية عن الثقافة الغربية ؛ من حيث الخصائص : إذْ أن من أهم خصائص الثقافة الإسلامية : اتصال العقيدة بشتى نظم الحياة ، ومختلف مجالاتها ، وكل محاولة لفصل العقيدة عن أى نظام أو مجال فى الحياة ، يعتبر إفساداً لأهم خاصية من خصائص الثقافة الإسلامية .

كما أن من أبرز خصائص الثقافة الإسلامية : أنها وحدة متكاملة شاملة لا تجزأ ، أو يؤخذ منها بطرف دون آخر ، إذْ كل عنصر منها متصل بالآخر متفاعل معه ، تأثراً أو تأثيراً ، وهذا التكامل أو الكمال مطلق ، لأنه كمال من حيث المصدر ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يأتى منه الباطل ، وكمال من حيث المضمون ، أو الوسيلة ، وكمال من حيث الهدف أو الغاية ، وكمال فى العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق والسلوك ، وفى تحقيق النظرة المُثلى : نظرة الإنسان للكون وللناس ، وإقامة العلاقات السوية فى كل المجالات ، ثم كمال من حيث التطبيق والعطاء الأمثل فى كل

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية . د مصطفى أبو سمك صـ ١١ - ١٢ طـ : القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

شأن من شئون الحياة :-

(هذا الكمال المطلق تفتقده الإنسانية فى أى نظام أو مذهب ، من تلك التيارات الفكرية - قديمة أو معاصرة أو مستقبلة - منفردة أو مجتمعة ، وأنى لها الكمال من حيث المصدر ، وهى نتاج فكر بشرى ناقص متقلب ؟؟ ، فهى فكرية لا سماوية وهى نتاج إنسان لا وحى السماء ...

وأنى لها الكمال من حيث المضمون ، وهى إنْ أشبعت العقل أجاعت البطن ، وإنْ أشبعت البطن أخْوت الروح ، يعيش الإنسان فى ظلها نصف إنسان ، لا تكتمل له نظرة إلى الأشياء ، ولا يغنيه فكر فى أى مجال .

وأنى لها الكمال من حيث العطاء الدائم المثمر وهى إنْ أعطت أخذت أضعاف ما تعطى ، وإنْ أثمرت فعلى أشلاء الملايين ودمائهم ، وفى ظل صراعات لا تنتهى) (١) .

أما فى الثقافة الغربية : فلا يمكن أن ينفى أى باحث منصف :-

" أن الخاصية الإلحادية هى المسيطرة على الثقافة الأوروبية المعاصرة ولا يمكن أن يضفى عليها طابعاً روحياً مؤثراً أو مميزاً ..

فالمذهب المادى فى الوجود ، والمذهب الحسى فى المعرفة ، والإلحاد المترتب عليه ، وكذلك المذهب النفسى فى الأخلاق ، هى المذاهب الغالبة الموجهة للحياة الأوروبية والأمريكية " (٢) .

فالإلحاد : هو الخاصية الثقافية الأولى المسيطرة والفاعلة فى الثقافة الأوروبية الحديثة باعتباره النتيجة الضرورية للمذهب الحسى فى المعرفة

---

(١) الإسلام والتيارات الفكرية المعاصرة : د / حسن عيسى عبد الظاهر مجلة الوعى الإسلامى صـ ٦٥ - العدد ١٤٥ محرم ١٣٩٧ هـ / يناير ١٩٧٧ م .

(٢) نقد الثقافة الإلحادية د / أحمد عبد الرحمن إبراهيم صـ ٢٠ .

والمذهب المادى فى الوجود (١) .

وقد أجرى عدد من الباحثين تحليلات واسعة عن الثقافة الغربية المعاصرة وانتهوا إلى أن أبرز خصائص هذه الثقافة :-

١) مصادمتها للفطرة الإنسانية .. وإهدارها خصائص الإنسانية ، كجنس وفرد ونوع ، وقد بدأت فى ظروف جعلتها تنفر من الدين ، فقد عادته وحاربته ، معاداة حاقدة ، وأصبحت المادية أخص سماتها ، ولم يكن للقيم الإنسانية بمفهومها الشامل مكان فيها ، فضلاً عن نهب ثروات الأمم المختلفة .

٢) إن الخطأ الفادح الذى وقعت فيه الثقافة المعاصرة هو عزل العلم عن القيم ، وما زال هذا الخطأ قائماً ، وما يزال العلماء فى الشرق والغرب لا يرون للقيم سلطاناً عليهم ، أو مدخلاً فى معاملاتهم .

لقد أفلست كل القيم الوضعية التى سادت فى العصر الحاضر ، فلم تكفل للناس حياة السلام والاستقرار ، وإنما جلبت عليهم الاضطراب والصراع والتمزق ... الخ (٢) .

رابعاً : من حيث الهدف :-

إن الثقافة فى الاتجاه الإسلامى تهدف بكل مجالاتها ، وفى كل مراحلها إلى أمور أساسية منها :-

١ - توحيد الخالق سبحانه وتعالى ، ورفض كل إشراك أو وثنية فى الفكر أو السلوك .

٢ - تحرير الإنسان من رق العبودية لمخلوق مثله ، أيا كان ، ليعيش

(١) المرجع السابق صـ ٢٨ .

(٢) الإسلام والتيارات الوافدة : أنور الجندى صـ ٦٩ طـ : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ م .



سيداً فى هذه الحياة الممهدة له ، والذى خلق ليكون خليفة فى عمارتها .

وقد حدد القرآن الكريم هذين الهدفين فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢) ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣) .

٣ - نشر العدل والمساواة والأخوة والإنسانية ، بين كافة الأجناس والفئات البشرية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٤) .

٤ - سعادة الإنسانية فى العاجل والآجل - ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٥) .

أما الثقافة الغربية فتهدف إلى استغلال الغنى للفقير ، واستعباد الناس بعضهم بعضاً ، واستعمار القوى للضعيف ، والتسلط على خيرات البلاد . واستخدامها وفق ما يحقق لهم النفع والمصلحة الخاصة (٦) .

كما تهدف الثقافة الغربية إلى خدمة الإنسان الأوروبى قبل غيره ، وعلى حساب غيره ، وليس إلى خدمة الإنسان بصفة عامة ، أو من حيث هو بشر ، كما تهدف الثقافة الغربية إلى فرض أسلوب القوة وأسلوب الميكافيلليه (٧)

---

(١) سورة البقرة [٣٠] .

(٢) سورة هود [٦١] .

(٣) سورة الذاريات [٥٦] .

(٤) سورة الحجرات [١٣] .

(٥) سورة طه [١٢٣ ، ١٢٤] .

(٦) أضواء على الثقافة الإسلامية : د / نادية العمرى صـ ١٨ .

(٧) هى نسبة إلى الفيلسوف الفرنسى "ميكافيللى" ١٤٦٩ - ١٥٢٧ م ، وهو أكبر دعاة فصل الدين عن السياسة ، وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية وأن الدولة أهم وأعز من كل شيئ ، وأن الملوك والرؤساء ينبغى أن يتخلقوا بأخلاق الثعالب - راجع : حاضر العالم الإسلامى : ، د / عبد العظيم سبيع صـ ٧١ - ٧٢ .

التى تنفصل فيه الأخلاق عن السياسة ، والغاية التى تبرر الوسيلة ، بينما تؤمن الثقافة الإسلامية .

بالحلول الأخلاقية وتهدف إلى نشرها وتحقيقها.

ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية .

بل لا بد للغايات الشريفة من وسائل شريفة (١) .

---

(١) التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام : أنور الجندى صـ ٢٣٠ ، ٢٣١ .

المبحث السادس

مكونات الثقافة :

تتكون الثقافة من مجموعة من العناصر ، وترتبط جميعها بعضها ببعضٍ ارتباطاً وثيقاً ، ولذلك فإن أى تغيير فى أحد هذه المكونات يستلزم تغييراً مصاحباً له فى هذه العناصر الأخرى .

إذْ الثقافة بنيان مركب لأنها تمثل سلسلة من العناصر المترابطة التى يتمكن بها الإنسان من ربط نفسه بالعالم البشرى والكونى .

ولا شك فى أن قوة هذه العناصر أو ضعفها سينعكس على المنهج الفكرى للأفراد والمجتمعات المثقفين بهذه الثقافة أو تلك .

وعلى الأساليب التى يعبرون بها عن مشاعرهم وسلوكياتهم فى كل شئونهم المختلفة .

يضاف إلى ذلك : أن عناصر الثقافة ليست على درجة واحدة من حيث التزام جميع أفراد المجتمع بها [هذا فى الثقافة غير الإسلامية إذ فيها يلتزم الجميع بجميع ما جاء فيها من مبادئ وقيم] فهناك عناصر عامة يلتزم بها جميع أفراد المجتمع ، وهناك عناصر خاصة تلتزم بها طبقة أو فئة معينة ، ولا يلتزم بها الجميع .

العناصر العامة للثقافة :-

العناصر الثقافية التى يلتزم بها جميع أفراد المجتمع يطلق عليها العموميات وهى – [المكونات الثقافية التى يشترك فيها جميع أفراد المجتمع الناضجين ، ويعاقب عليها كل من يخالفها (١) .

وتشتمل على أمور كثيرة منها :-

---

(١) الأصول الثقافية والاجتماعية : د / حسن إبراهيم عبد العال صـ ١٢٢.

أولاً: الدين :-

إن الدين - أى دين - هو المكون الأول والأهم للثقافة - أى ثقافة لأى أمة .

وذلك : لأن الدين له بالغ الأهمية والتأثير فى القلب والضمير وفى الوجدان والسلوك والتفكير .

كما أن الدين هو الذى يحدد للأمة فلسفتها عن سر الحياة . وغاية الوجود ويجيبها عن كل ما يخالج فكرها من تساؤلات : من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يمكننى أن أعلم ؟ . ولمادا أحيا ؟ ولماذا أموت ؟ ... الخ .

كما أن الدين هو الذى يجعل للإنسان رسالة وهدفاً . ويجعل للحياة معنى وقيمة يجسدها الإنسان فى سلوكياته العامة والخاصة .

وهذه الصلة العميقة بين الدين والثقافة . ليست خاصة بثقافة دون أخرى . فكل الثقافات مدينة للدين فى تكوينها . وتوجهاتها ، وتوجيهها . سواء أكان هذا الدين سماوياً - صحيحاً أو محرفاً - أم وضعياً . كما هو واضح فى ثقافات العالم كله .

أثر الإسلام فى ثقافة المسلمين :-

إن الإسلام له تأثيره العميق والشامل فى ثقافة المسلمين أفراداً ومجتمعين عن طريق عقيدته الإيمانية . وشعائره التعبدية . وقيمه الخلقية وأحكامه التشريعية . وآدابه العملية . ومفاهيمه النظرية .

فهو دين يتغلغل فى حياة الفرد . والأسرة . والمجتمع . ويؤثر فى الفكر والشعور والإرادة . ويوجه العقل والضمير والسلوك ، ويصبغ الحياة كلها



بصبغة متميزة – ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (١) ؟ . تتجلى فى :- توجهها الربانى . ونزوعها الإنسانى . وانضباطها الأخلاقى وتحركها الإيجابى . وتوازنها القيمى .

فالمسلم يعيش بالله . ولله . فهو يأكل باسم الله ويشبع بحمد الله – وينام على ذكر الله ، ويستيقظ على ذكر الله وتجيئه النعمة فيحمد الله وتصيبه المصيبة فيسترجع لله – إنا لله وإنا إليه راجعون – فالله تعالى حى فى وجدان المسلم . حاضر على لسانه .

وقد أكد الكثيرون غير المسلمين ممن عايشوا المسلمين قليلاً أو كثيراً . أن الدين الإسلامى هو المؤثر الأول فى حياة المسلمين وسلوكهم حتى وإن كانوا من العصاة المنحرفين . يقول غوستاف لوبون :-

تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر . ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تعمل منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

– أجل !! قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والمنحرفين ولكن لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية . كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة . مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به النصارى كما شاهدتُ ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسيا وإفريقيا . ومن ذلك : أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين فى الأصفاد . ومتهمين

---

(١) سورة البقرة [١٣٨] .

بأنواع الجرائم . فقضيت العجب حين رأيتهم [وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات] .

لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبى . وحين رأيتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا الله القهار ويعبدوه ...

وعلى من يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق - التى لم يدرك - الأوروبيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها .

وللدين - ذى التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم . وبالدين يُؤَثّر فى نفوسهم . ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين منذ الثورة التى ضرجت مصر بالدماء (١) .

إن الرجل الذى يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة . ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً . فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق الذى استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى . وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير (٢) .

ولا يقتصر تأثير الدين الإسلامى على ثقافة المسلمين فقط . بل له أبلغ الأثر فى تكوين ثقافة غير المسلمين الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا . وسواء أحبوا ذلك أم كرهوا . وقد صرح بذلك كثير من النصارى أمثال :

فارس الخورى رئيس وزراء سوريا الأسبق . والزعيم السياسى مكرم عبيد الذى أعلن ولاءه لعروبته ومصريته بقوله : أنا نصرانى ديناً . مسلم

---

(١) يقصد ثورة ١٩١٩ م .

(٢) حضارة العرب غوستاف لوبون صـ ٤١٧ .

وطناً - أى ثقافة وحضارى !! (١)

أثر النصرانية فى تكوين الثقافة الغربية :-

وإذا كان هذا دور الإسلام فى تكوين ثقافة المسلمين - وغير المسلمين - فإن الثقافة الغربية . وليدة النصرانية بعقائدها وتصوراتها ومواريثها وتقاليدها المختلفة . يقول المستشرق ث . إليوث . عن تأثير العقيدة المسيحية فى الثقافة والحضارة الأوربية :-

فى المسيحية نمت فنوننا . وفى المسيحية تأصلت - إلى عهد قريب - قوانين أوربا . وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحى . وقد لا يؤمن شخص أوربى بأن العقيدة المسيحية صحيحة . ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه فى الثقافة المسيحية ويعتمد فى معناه على تلك الثقافة ...

ثم يقول :- ما كانت تخرج فوليتر أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية وما أظن أن ثقافة أوربا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحى اختفاءً تاماً . ولا يرجع اقتناعى بذلك إلى كونى مسيحياً فحسب . بل إننى مقتنع به أيضاً بوصفى دراساً لعلم الإحياء الاجتماعى ...

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا . وعندئذٍ يكون عليك أنه تبدأ البداية المؤلمة من جديد . ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب . ليغذو الضأن . ليعطى الصوف الذى سيُصنع منه رداؤك الجديد !!

يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية . ولن نعيش إذاً لنرى

---

(١) الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة د . يوسف القرضاوى صـ ٢٠ - ٢١ .

الثقافة الجديدة لا نحن ولا أحفاد أحفادنا ، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا (١) !! .

ومثلما يقال عن أثر الإسلام والمسيحية فى تكوين الثقافة الإسلامية والمسيحية . يقال عن أثر الهندوسية فى الثقافة الهندية . والبوذية فى الثقافة الصينية والكورية ... الخ .

وكل هذا يؤكد أنه لا ثقافة بدون الدين . أياً كان هذا الدين !!

حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظرياً وعملياً ... لم يسعهم إلا أن يصنعوا للناس ديناً جديداً يقوم مقام الدين القديم .

إلهه المادة، ونبيه ماركس . وجنته الشيوعية .وشيطانه الرأسمالية !!(٢) .

ثانياً: اللغة :

وهى تشمل طريقة التخاطب والإشارات والرموز التى تستخدم فى التعبير عما يجيش فى النفس .

كما تشمل الكتابة وطريقة رسم الحروف وما يتعلق بنقل الأفكار والأعمال من شخص لآخر (٣) .

واللغة على رأس العناصر الثقافية الأخرى لأنه بدون اللغة ما كانت لتقوم ثقافة .

كما أنها تعتبر الوسيلة التى تتداول عبرها جميع عناصر الثقافة بين أفراد المجتمع (٤) .

---

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ترجمة د . شكرى عياد صـ ١٤٥ طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) الثقافة العربية الإسلامية : د : القرضاوى صـ ٢٢ .

(٣) أسس علم الاجتماع : د / حسن شحاته سعفان صـ ٧٩ .

(٤) ثقافة أساسية : د / ماهر كامل ود / أمين عبد الله صالح صـ ٩ - ط : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ م .

ثالثاً : القيم أو العادات والتقاليد السائدة والمتوازنة بين الأجيال :-

وهى كل المبادئ والأحكام والاختبارات التى اكتسبت معانى اجتماعية خاصة خلال التجربة الإنسانية وهى تميز بين ما هو مرغوب فيه ، وما هو مرغوب عنه – وهى نسبية تختلف من مجتمع لآخر (١) .

فالجمال قد يكون قيمة مرغوب فيها فى المجتمع ، ولكن قد لا يكون كذلك فى مجتمع آخر ، وتقوم القيم بوظيفة ربط أجزاء الثقافة الواحدة بعضها بالآخر .. ويمكن التمييز بين الثقافة الواحدة وغيرها من الثقافات الأخرى بحيث يمكن القول : "إنه إذا كان نسق القيم غير مقدس ، يقوم بتقييم الأشياء والأفكار على أساس نفعى ، ويستقبل الإنسان فى هذه الثقافة التغيير ، ويسعى إليه ويخطط من أجله ، أما إذا كان نسق القيم مقدساً تميزت الثقافة بالنزعات المحافظة والثبات ، والحفاظ على التقاليد ، وكان الانحراف عنها مفضياً إلى العقاب الصارم." (٢) .

أهمية العناصر العامة للثقافة :-

العناصر العمومية للثقافة ، تشكل للثقافة الأساس العام الذى يميزها عن غيرها من الثقافات ، ذلك أنها تؤدى إلى وجود نمط مشترك من القيم والاتجاهات يتميز بها أفراد ثقافة عن غيرهم فى ثقافة أخرى .

كذلك تؤدى هذه العموميات إلى وجود اهتمامات مشتركة بين أفراد المجتمع ، تعمل على تماسك الجماعة ووحدة أهدافها .

العناصر الخاصة للثقافة :-

أما العناصر الثقافية الخاصة التى لا يلتزم بها جميع أفراد المجتمع ، بل

---

(١) المجتمع والثقافة والشخصية : د / محمد على محمد – وآخرون صـ ١٥٩ .

(٢) المجتمع والثقافة والشخصية : د / على عبد الرازق حلبى صـ ٩٥ .

هى لفئة معينة ، بالإضافة إلى التزام هذه الفئة بالعناصر العمومية للثقافة ، فهى :-

"تلك الظواهر التى لا يشارك فيها سوى أفراد من مجموعات أو فئات معينة" .

وذلك لاشتمال كل مجتمع إنسانى على أقسام فرعية فى داخله ، ولكل جماعة أنماط خاصة من السلوك تميزها عن غيرها .

فأنماط السلوك الخاصة بالشخص المسلم ، غير أنماط السلوك الخاصة بغير المسلم . وإن كانا فى مجتمع واحد .

فمثلاً : لا يمكن للرجل المسلم الخلوة بالمرأة الأجنبية فى حين قد يسوغ لغير المسلم الخلوة بالأجنبية حسب قيمه ومبادئه .

كما لا يجوز للرجل أو المرأة أن يقشبه كل منهما بالآخر فى الإسلام . بينما يسوغ هذا التشبه عند غير المسلمين .

وتتسم الخصوصيات الثقافية بأنها ليست قدراً مشتركاً بين جميع أفراد المجتمع (١) .

وحلل الأستاذ / مالك بن نبى (٢) عناصر الثقافة قاطبة بأنها أربعة

---

(١) الأصول الثقافية والاجتماعية للتربية د / حسن إبراهيم عبد العال صـ ١٢٠ ، ومدخل لدراسة المجتمع : د / عبد الهادى الجوهرى وآخرون بتصرف صـ ٢٦ .

(٢) هو باحث مسلم من الجزائر اهتم بعقد الصلة بين الجانب الاجتماعى والتقنية التى تعيشها فرنسا والقيم السائدة وموقف الإسلام والمجتمع المسلم من هذا كله ، وله كثير من المؤلفات التى تتصل بالثقافة والحضارة الإسلامية منها : مشكلة الثقافة . وشروط النهضة ، والظاهرة القرآنية ، والمسلم فى عالم الاقتصاد ، وغير ذلك . - راجع شخصيات إسلامية معاصرة : إبراهيم البعثى جـ ٢ صـ ١٨٧ ط : دار الشعب بمصر - بدون تاريخ .

عناصر تتمثل فى :-

١ - الأخلاق : ومبعثها الدين .

٢ - الجمال .

٣ - المنطق العلمى .

٤ - العلم . ثم يقول عن هذه العناصر الأربعة : [فالمبادئ الأربعة التى قررناها كفيلة بجمع شروط الفاعلية التى - هى الشئ الذى نريده من وراء كلمة ثقافة :-

ذلك لو أننا حللنا عملاً ما ، على أنه كائن مركب ومشتمل على دوافع نفسية ، فإننا نرى أن هذه الدوافع يبعثها المبدأ الأخلاقى فى النفس ، حيث لا يمكن أن يتصور هذا العمل بدونها ، كعمل إرادى ، وهذا العمل يأتى بصورة معينة يحددها ذوق الجمال . وبهذا يتم جزء من فاعليته ، كما أن هذا العمل سنجده يؤدى للمصلحة الاجتماعية ، بقدر ما فيه من المنطق العملى الذى يحدد سرعة إنجازه ، وبه تمام جزء فاعليته الآخر ، وهو أخيراً يطلب تطبيق أصول نظرية ووسائل مادية يقدمها العلم ، وهل بعد تحديد دوافع العمل وصورته وسرعة إنجازه ووسائله شيئ يبقى دون أن يستكمل العمل صورته التامة ؟! ...

فيجب علينا إذاً أن نقول :

"إن الثقافة تشتمل على أربعة فصول : فصل أخلاق ، وفصل جمال ، وفصل منطق عملى ، وفصل علم (١) .

---

(١) تأملات : مالك بن نبى صـ ١٤٧ ، ١٤٨ طـ : دار الفكر بدمشق ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

المبحث السابع
أهمية الثقافة للبشرية

أولاً : أهمية الثقافة بوجه عام :-

من الأمور المُسلَّم بها أن الإنسان مكوَّن من جسم وروح ، أو عقل ، ولكل منهما مطالبه الضرورية واحتياجاته الأساسية اللازمة لنموه ، حتى يتمكن من أداء مهمته فى هذه الحياة .

ومن الأمور الضرورية اللازمة لنمو العقل والذوق :- الثقافة بشتى صورها ، من أجل ذلك تعتبر حاجة الإنسان إلى الثقافة أمراً فطرياً تستلزمه البشرية ، إذْ الثقافة لها دورها الخطير ، وأهميتها البالغة فى تحديد شخصية الإنسان ، وتحديد سلوكه .

فهى الأرضية التى يقام على أساسها كل بناء ، وهى الأسس التى بصلابتها يزداد البناء قوة وتماسكاً ، وبضعفها يتصدع البناء ويصبح عرضة للهزات والزوال ، وهى فى شموليتها تعتبر كمجمع لروافد الفكر والمعرفة فى مختلف أشكال الخلق والإبداع كما أنها وسيلة ناجحة لرفع مستوى الشعوب فى كافة ميادين حياتهم ومنحهم القوة والعزيمة ، والصمود أمام الصعوبات والعراقيل التى تعترض طريقهم ، كما أنها تقرر للإنسان كيف يفكر فى العوالم المحيطة به ، وتوفر للأفراد : [تفسيرات جاهزة لنشأة الكون وأصل الإنسان . ودور الإنسان فى هذا الكون ، وقد تكون هذه التفسيرات غيبية أو علمية وقد يتشبعوا بهذه التفسيرات أو تلك ، فتؤثر على نظرتهم إلى الكون وعلاقتهم به ، وهم إذْ يقومون بالتغيير والتفسير

في حياتهم ، إنما يقع فغل هذا كله على هذه التفسيرات والتصورات) (١) .

والثقافة تحرر الإنسان ، كما أنها تقيد حريته ، فالمخترعات الطبية خففت كثيراً من الآلام التي كان يعاني منها الإنسان . كما قللت المخترعات التكنولوجية من الجهد الذي كان يبذله الإنسان في السفر ، والانتقال والإنتاج .

والثقافة تقيد حريتنا لأننا لا نستطيع أن نفعل كل ما نود فعله ، فهناك قيود مفروضة على حريتنا في التصرف وعلى مشاعرنا ، والثقافة تقيد حريتنا عن طريق القوانين ، ومَن يخالف القوانين يقع تحت طائلة العقوبات المنصوص عليها ، والعادات والتقاليد تؤثر على أفكارنا ومشاعرنا ، وتقيد حريتنا في العمل ، غير أن القيود التي تفرضها الثقافة تصبح – إذا كانت لها مبرراتها – تحقق سعادة الأفراد ، ولا تقف عقبة في سبيل تحقيقهم لذواتهم – وهذا ما هو محقق في الثقافة الإسلامية – أما إذا توسعت الثقافة في فرض القيود على الإنسان فإنها تصبح حينئذٍ عائقاً في سبيل تحقيق الإنسان لذاته – وهذا محقق في الثقافات غير الإسلامية – فمثلاً في الثقافات التي يقوم فيها نظام طبقي صارخ وغير عادل تفرض قيود على أعضاء الطبقة المستعبدة أو المستغلة ، وذلك بقصد منعهم من المطالبة بالمساواة أو تحقيق هذه المساواة (٢) .

كما أن الثقافة توفر للأفراد المعاني والمعايير التي يميزون في ضوئها بين

---

(١) التربية والتغيير الثقافي : د / محمد الهادي عفيفي صـ ٨٠ طـ : ٢ – الأنجلو المصرية – ١٩٦٤ م .

(٢) الثقافة والتربية د / حسن الفقي صـ ١١ ، ١٢ الطبعة الأولى ١٩٧٠ م .

الأشياء والأحداث ، فما يعتبره الفرد منطقياً أو غير منطقى ، عادياً أو شاذاً ، خلقياً أو غير خلقى ، جميلاً ، أو قبيحاً ، هاماً أو تافهاً ، جيداً أو رديئاً ، يشتق من معانى الثقافة ، وأسس التمييز فيها ، لذا يقول أحد الباحثين : [إن الثقافة تضفى على حياة الفرد معنىً ، وتكسب الوجود غرضاً ، وتمد الأفراد بالقيم والأهداف والآمال ، وتشعرهم بأنهم يعيشون من أجل شيئ ..] (١) .

والثقافة من وجهة نظر اجتماعية : [هى حياة المجتمع ، إذْ بدونها يكون المجتمع ميتاً - موتاً ثقافياً - وهى التى تطبع أسلوب حياة مجتمع معين بطابع خاص ، وتخلق بين أفراده تجانساً وتماسكاً يعطى لهذا المجتمع القدرة على التقدم والبناء] (٢) .

كما أنه مما يؤكد أهمية الثقافة للمجتمع : [أنها تساعد المجتمع على البقاء والصمود ومسايرة التطور الدائم ، فليس هناك من ثقافة صالحة وثقافة طالحة (٣) ، بمقدار ما تمد المجتمع بالقوة ، فكل الثقافات صالحة من منظور أبنائها ، لكن ما هو صالح وطيب فى ثقافة ما قد لا يكون كذلك فى ثقافة أخرى ، وهذا هو ما يسمى بالنسبية الثقافية] (٤) .

ولا يمكن لباحث فى المجتمع الإنسانى أن يتغافل عن الثقافة وإلا أصبحت دراسته دراسة فارغة المضمون ، فالثقافة : تتخلل كل جزء من أجزاء حياة الإنسان الاجتماعية ، وتزحف على كل نشاط يقوم به ، وكل

---

(١) التربية والتغيير الثقافى : د / محمد الهادى عفيفى صـ ٨٠ - ٨١ .

(٢) مشكلات الحضارة عند مالك بن نبى : محمد عبد السلام الجفائرى صـ ١١٩ .

(٣) لأن الثقافة من الأمور ذات الحدين قابلة للخير ، وقابلة للشر حسب توجيه المثقف بها .

(٤) معالم على طريق تحديث الفكر العربى د / معن زيادة صـ ٦٢ - سلسلة عالم المعرفة بالكويت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

تفكير يخطر له وكل سلوك يقوم به .. من أجل هذا يذهب كثير من علماء الاجتماع إلى القول : إن دراسة المجتمع تتضمن دراسة الثقافة مهما كان الجانب الذى ندرسه من المجتمع] (١) .

لذا فلا يمكن أن يوجد مجتمع بغير ثقافة ، كما لا توجد ثقافة بغير مجتمع ، فهما متلازمان ، إلا أنهما ليسا شيئاً واحداً . إذ [المجتمع يتكون من الأفراد . والثقافة تتكون من الأشياء التى يفكر فيها الأفراد ، ويشعرون بها ويعملون وفقاً لها . ويستمتعون بها] (٢) .

ونظراً لأهمية الثقافة بالنسبة للفرد والمجتمع ، نجد أن الثقافة ليست أمراً كمالياً يمكن الاستغناء عنه ، بل هى أساس النهوض بالإنسان ، ورفع مستواه فى كافة ميادين حياته النظرية والعملية الفردية والجماعية .

ثانياً : أهمية الثقافة الإسلامية بوجه خاص :-

هذا عن أهمية الثقافة بوجه عام ، أما أهمية الثقافة الإسلامية ، فهى : تمثل كل شيئ فى حياة الأمة الإسلامية ، [وهى عنوان شخصيتها ومظهر وجودها ، بل هى دم الحياة والوجود وهو المعنى المفهوم من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (٣) فكأن العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية وما يحيط بها من فكر إسلامى ، إنما هى الحياة ، وليس استيعاب مجموع ذلك إلا ما يمكننا أن نسميه بروح الثقافة الإسلامية ، أوقلب الثقافة الإسلامية

---

(١) مدخل إلى علم الاجتماع : د / محمد عاطف غيث صـ ١٣٤ ط : ٤ /١٩٧٧ م دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية .

(٢) الثقافة والتربية : د / حسن الفقى صـ ١٣ .

(٣) سورة الأنفال [٢٤] .

وعقلها] (١) .

وإذا كانت الثقافة بشكل عام من الأمور التى يتجمل بها الإنسان ويستكمل بها مقومات شخصيته ، فإن الثقافة الإسلامية خاصة هى من الأمور التى لا يمكن الاستغناء عنها ، ومن الضرورات الحتمية لكل عربى مسلم فى هذه الأيام ، التى يواجه فيها العرب والمسلمون تحدياً حضارياً ، وصراعاً سياسياً وفكرياً بحيث لا يمكنهم البقاء والصمود دون التسلح بها .

فهذه الثقافة العربية الإسلامية ضرورية وحتمية لكل المسلمين وغير المسلمين اليوم لأسباب ترتبط بفطرتهم وغرائزهم الإنسانية قبل أن ترتبط بكونهم مسلمين لأسباب عديدة من أهمها :-

السبب الأول : فهو أنه من الأمور الفطرية الطبيعية أن يكون كل إنسان منتمياً إلى أسرة أو جماعة أو وطن ، وبهذا يكون لهذا الفرد شخصيته وعصبيته وجنسيته ، ولو نظرنا إلى حالة فرد منبوذ لقيط أو ابن غير شرعى أو غير ذلك ، فى مجتمع لا يرضى به لوجدناه يعيش فى جحيم من الضياع والقلق ، واهتزاز القيم والمبادئ وما يصدق على هذا الفرد " اللا منتمى " يصدق على الأمة التى لا شخصية لها ، أو التى هى ضائعة حائرة تعيش فى صراع بين المبادئ والقيم والأفكار والمُثُل .

والأمة الإسلامية وقد غزتها الحضارة الغربية الصهيونية والصليبية تعيش الآن مرحلة من أشد مراحل الصراع والقلق .

ولا ريب أن وجود ثقافة إسلامية مشتركة يلتقى عليها المسلمون ويشب

---

(١) ثقافة المسلم : د / عبد الحليم عويس صـ ١٩ .

عليها الشباب المسلم من أهم الأمور وألزمها ، إذا أردنا لأمتنا النجاة من حالة الضياع والتمزق الفكرى الذى تحيا فيه ، والخلاص من البقاء بدون شخصية وفكر موحد (١) لأنه يعد الفشل المتكرر من خلال المناهج المختلفة والتجارب المتصلة تَثْبُت للمسلمين حقيقةً واضحة صريحة كفلق الصبح ، أنه لا سبيل إلى النهضة إلا من خلال مفاتيح الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية ، فهى وحدها القادرة على العطاء (٢) .

والسبب الفطرى الثانى :-

متصل بغريزة الدفاع عن النفس ، ذلك أن الأمة الإسلامية تتعرض فى عصرنا هذا . لحرب ضارية يشنها عليها الغرب الصليبى وتدفعه وتعينه على ذلك الصهيونية العالمية . هذه الحرب ... تبدو آثارها فيما يتعرض له المسلمون اليوم فى كل مكان : فى فلسطين خاصة ، وفى البلاد العربية عامة وفى إفريقيا ، وفى الباكستان ، وفى الفلبين ، وفى أماكن كثيرة ... ومواجهة هذه الأخطار الداهمة لن تكون بمجرد الاستزادة من العلوم التجريبية التكنولوجية ، ولن يكون بإنشاء الصناعات وتقوية الجيوش فقط ، بل لا بد حتماً أن يسبق ذلك ، ويصحبه تكوين الرجل العربى السليم ، الذى يعلم ويعمل ، ويبنى وينشئ ويصنع ويحارب ، أويقاتل ، وتَكَوُّن الرجال مهمة

---

(١) المدخل إلى الثقافة الإسلامية : د / محمد رشاد سالم صـ ٥ ، وما بعدها ، ط : دار القلم بالكويت بدون تاريخ .

(٢) المعاصرة فى إطار الأصالة : أنور الجندى صـ ١٦ طـ ١ - دار الصحوة ، سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

أصعب بكثير من إنشاء المصانع والمبانى .

والثقافة الإسلامية بوجه خاص هى أهم وسيلة يمكن بها تكوين الجيل المسلم الذى يتصدى لهذه الأخطار أولاً .

ثم يتقدم بعد ذلك لبعث الحضارة الإسلامية التى حملت إلى الإنسانية عبر القرون الممتدة ، الحق والخير والفضيلة ، والتسامح والرخاء ، والأمن والرفاهية ، والسعادة (١) .

(١) المدخل إلى الثقافة الإسلامية : دكتور محمد رشاد سالم صـ ٩ .

المبحث الثامن
المثقف

مدى أصالة مفهوم المثقف :-

مفهوم المثقف . مفهوم وافد . خاصة مع الدراسات الاستشراقية والدراسات الأوربية فى العصور الحديثة . ولذا فالمسلمون يستعملونه من باب التقليد والمحاكاة . [ولم تبرز كلمة مثقف إلا فى أواخر القرن ١٩ م . وفى فرنسا بالذات . ومفهوم – المثقف – هو امتداد لما سمى فى القرن ١٨ م فيلسوف الأنوار .

وفى بداية القرن ١٩ م . مذهبى أو أيديولوجى] (١) .

وبروز مفهوم المثقف فى القرن ١٩ م . ارتبط بصراع فكرى وسياسى . أضفى على المثقفين شرعية التواجد كفئة نشيطة ومعارضة للسلطة . فالنشأة كانت إذاً وليدة ظروف فكرية داخلية تحمل إشكالية سياسية (٢) وهذا المفهوم مرادف لمفاهيم كثيرة مثل : العلماء . والفقهاء . والحكماء . وأرباب الصنائع والفلاسفة ... الخ . وكلها مفاهيم تتغير حسب الزمان والمكان .

مفهوم المثقف – فى اللغة الأوربية :-

كلمة مثقف تعنى فى الفرنسية [انتكلتس) . [Antilicts] مشتقة من انتلكسل [Antlisil] أى الذكاء أو الفهم . أو العقل . (٣) .

---

(١) الأنتلجنسيا العربية صـ ٣٠٩ منتدى الفكر العربى . عمان الأردن طـ ١ ١٩٨٨ م .
(٢) السابق صـ٣٠٩ .
(٣) دفاع عن المثقفين . جان بول سارتر . ترجمة جورج طرابيشى صـ ٥١ طـ ١ ١٩٧٣ م . دار الآداب بيروت .

وفى اللغات الأوربية (انتلكشيل) . [Antilikshil] وهى اسم مصدر . والصفة منها هى (انتلجنسيا) . [Antilginsia] وأصل الكلمتين مما هو (انتلكت) . [Antilict] بمعنى العقل . أو الذهن . أو المخ . أو الذكاء . أو قوة الإدراك . أو الفهم . ومن ثم تعنى الصفة منها :- العاقل المتفهم . وتطلق على الرجل الذى يحسن التفكير . ولذا فهى تطلق على أهل الفكر ... أو على فئة من فئات المجتمع . تكون صفاتها المميزة البارزة فى المجتمع هى استعدادها الفكرى وذكاؤها .

إذاً فكلمة مثقف تعنى فى اللغات الأوربية معنىً عقلياً بحتاً . وقد تحمل إلى جانب هذا . معنىً سياسياً ثورياً كما فى اللغة الروسية (انتلجنسيا) [Antilgensia] .

مفهوم - المثقف - فى اللغة العربية :-

أما فى اللغة العربية فإن كلمة المثقف . لا تعنى من يستخدم "ملكاته العقلية وحدها . بل تعنى أيضاً من يستخدم خياله . أو قدراته على الإبداع . فكلمة المثقف فى اللغة العربية من يحب المعرفة (١) .

كما تعنى من نال قسطاً طيباً من التهذيب والخلق والمكانة العلمية .

فهى فى اللغة العربية تحمل معانى تتجاوز ما يمكن أن يقابلها فى اللغات الأجنبية .

وعليه أستطيع أن أقول : إن المثقف هو الشخص الذى يمارس أنشطة فكرية علمية . شاغلاً نفسه بالبحث والإبداع والشرح والتفصيل قاصداً إلى زيادة المعرفة والوعى والتخطيط والتنفيذ .

وهو ذلك الشخص الذى يرقى نفسه إلى مستوى الإنسان الكلى محققاً

---

(١) الأنتلجنسيا العربية صـ ١٦٢ وخطاب إلى العقل العربى د / فؤاد زكريا صـ ١٧ .

فى ذاته ضرباً من الوحدة العضوية بين شتى عناصر الإنسان الروحية والعقلية والمادية والدينية والاقتصادية والاجتماعية .

أو هو ذلك الشخص - الحاذق البصير العارف بمطالب عصره - الذى لا يقتصر بالمعرفة على جانب دون آخر . وإنما يأخذ من كل فن بطرف] (١) .

وهو ذلك الشخص الذى استوعب الكثير من المعلومات وأخذ نفسه بمناهج العلم المتباينة فيما يعرض للوقوف عليه والتمرس به [سواء أكانت تلك المناهج استقرائية تنبنى على أساس استنباط النظريات من الوقائع المحسوسة فى الطبيعة . أو فى المعمل . أم كانت مبنية على أساس نظرى يبدأ بالنظريات المجردة . أو القوانين العامة . وينزل إلى الوقائع الجزئية .

أم كانت مجموعة من القوانين العقلية المنطقية . أو القوالب الفكرية التى تظل محلقة فى عالم المجردات . لأنها بطبيعتها تنأى عن الوقائع المحسوسة . وتظل محلقة فى عالم المجردات بفضل ارتباطها بالجهاز التفكيرى نفسه أو بعالم الفكر المطلق كما هو الحال بالنسبة لكثير من المسائل الفلسفية أو المنطقية] (٢) .

هذا عن مفهوم المثقف بصفة عامة .

مفهوم المثقف فى الإصطلاح الإسلامى .

مفهوم واسع شامل يشمل كل من أسهم بطريقة ما فى تراث الفكر العربى الإسلامى فى شتى مجالات المعرفة الإسلامية] (٣) .

---

(١) قيم حضارية فى القرآن الكريم . توفيق محمد سبع جـ ١ صـ ٣٨ طـ دار المنار ١٩٨٤ م .

(٢) الثقافة ومستقبل الشباب . يوسف ميخائيل أسعد صـ ٧ طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) الأنتلجنسيا العربية صـ ٤٥ .

فهو ذلك الشخص المسلم الذى أوتى حظاً من الثقافة يؤهله للمساهمة فى شتى المجالات الفكرية العلمية النظرية أو العملية الذى يستطيع المساهمة أو المشاركة فيها .

وهو ذلك الإنسان المتكامل الذى بلغ من النضج النفسى حداً أصبح يستطيع معه أن يجمع فى ذاته بين رهافة الحس ورجاحة الحكم . ودقة العقل والتفكير . وعمق التخصص . وسعة الأفق وحدّة العاطفة .

وهو ذلك الإنسان الحاذق البصير بمطالب عصره ومصره .

وهو الذى لا يقتصر فى المعرفة على جانب دون آخر . وإنما يلم إلماماً واعياً بأطراف من العلوم والمعارف المتنوعة فى شتى مجالات الحياة النظرية والعملية : ديناً وأدباً . واجتماعاً وسياسة . واقتصاداً وطباً ... الخ .

ينتقل بين هذه العلوم والمعارف تنقلاً سهلاً . بلا تعقد أو غموض .

ومن أشهر هؤلاء المثقفين المسلمين الإمام محمد بن إدريس الشافعى . فقد تثقف ثقافة عربية إسلامية واسعة اكتسبها منذ حداثة سنه . من إقامته فى البادية . وقد أفادته الإقامة فى البادية معرفة واسعة باللغة والشعر وتفهم سليم لمعانى القرآن الكريم والسنة . كما أفادته قوة فى التعبير عربيةً رصينةً فى الأسلوب وذوقاً دقيقاً حتى لقد قرأ عليه رجل فَلَحَنَ فقال له الشافعى : أضرستنى - وقد روى أن الأصمعى (١) أخذ عنه شعر الهذليين (٢) وشعر الشنفرى (٣) .

---

(١) هو عبد الملك ابن قريب من قيس وكان أعلم القوم وأتقنهم بالشعر وهو من أهل البصرة وتوفى ٢١٤ هـ . الفهرست لابن النديم صـ ٥٥ .

(٢) هو شعر قبيلة بنى هذيل .

(٣) هو الشنفرى بن الحجر من قبيلة الأزد من شعراء اليمن توفى سنة ٥١٠ هـ .

ومع هذه الثقافة الواسعة فى اللغة وآدابها . اتجه إلى مجال آخر فى الثقافة . وهو العلوم الشرعية . فاتجه إلى الحديث والفقه فأخذ فى مكة عن سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وحفظ الموطأ ، ثم رحل إلى مالك فى المدينة ، وسمع منه الموطأ ، وأخذ عنه فقهه ولازمه إلى أن مات الإمام مالك ١٧٩ هـ (١) .

وهكذا كان الإمام الشافعى – رضي الله عنه – يجمع فى ثقافته بين المجالات المختلفة فى الثقافة الإسلامية . من فقه . وأصول فقه . وحديث . ولغة . وأدب .. الخ .

وتاريخ الثقافة الإسلامية مملوء بأمثال الإمام الشافعى – رضي الله عنه – ممن يصعب حصرهم .

كابن سينا والرازى وابن الهيثم وغيرهم .

بين المثقف والداعية :-

يتضح مما سبق أن مفهوم المثقف أخص من مفهوم الداعية .

فكل داعية مثقف . وليس كل مثقف داعية . وذلك لأن الداعية مثقف يستطيع إثارة الغير إقناعاً واستمالة .

شروط المثقف :-

يشترط فيمن يطلق عليه لقب المثقف شروطاً لا بد منها وهذه الشروط قد تختلف باختلاف الأزمنة . فلكل عصر ضرورات معينة . يشترط توافرها فيمن يسمى بالمثقف .

[فحيناً كانت الفروسية شرطاً . وحيناً آخر كان التفلسف شرطاً . وحيناً

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ صـ ٢٥١ طـ دار الفكر العربى بالقاهرة بدون تاريخ وراجع ضحى الإسلام جـ ٢ صـ ٢١٩ طـ ١٠ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

ثالثاً كان الإلمام بشرائع الدين وقواعد اللغة شرطاً

وحيناً رابعاً كان اصطناع النظرة العلمية شرطاً وهلم جراً .

وبداهة لم يكن لكل عصر شرط واحد يطالب بتوافره فى المثقف . ولكنها كانت دائماً مجموعة قليلة من صفات أساسية هى التى يتطلبها كل عصر من مثقفيه] (١) .

وهناك شروط أرى أنها لا بد منها فى المثقف فى كل زمان ومكان .

من هذه الشروط :-

١ - المعرفة العامة . نظرية كانت أو عملية . دينية أو دنيوية .

٢ - الاهتمام بالمسائل العامة للمجتمع الذى يعيش فيه المثقف .

٣ - التعبير بشتى السبل والوسائل عن اهتمامه بالمعرفة العامة أو بقضايا مجتمعه بما يناسب كُلاً منها إيجاباً أو سلباً .

ولو توفرت فى المثقف شروطه . **كان عليه رسالة يجب أن يؤديها وتتخذ ثلاث شعب :-**

[أولاً - يقدم الأفكار للناس نظرياً وعملياً .

ثانياً - يمنع وقوع العدوان على هذه الأفكار .

ثالثاً - يشد من أزر المجتمع حينما يستفحل هذا العدوان .

---

(١) قيم من التراث د / زكى نجيب محمود صـ ٣٢٦ طـ ٢ دار الشروق بالقاهرة ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م .

المبحث التاسع

علاقة مفهوم الثقافة بغيره من المفاهيم .

يتشابه مفهوم الثقافة مع كثير من الألفاظ التى قد تقترب منه أو تبتعد عنه .

وعند الدراسة والتحقيق نجد أن من بين هذه الألفاظ ما يقترب من مفهوم الثقافة فعلاً . لدرجة أنه قد يشترك معه فى الدلالة . أو يترادف معه فى الإطلاق .

ومن هذه الألفاظ ما قد يبتعد عنه ولا صلة له به ولكن لكثرة تردده على الألسنة أخذه الناس على أنه من الألفاظ الشديدة الصلة بالثقافة . كالعلم والمعرفة مثلاً .

ومن الألفاظ شديدة الصلة بالثقافة : الحضارة والمدنية مثلاً .

الثقافة والحضارة

لكى تتضح العلاقة بين الثقافة والحضارة لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية لتحديد معنى اللفظيْن أولاً . وقد تقدم تحديد مفهوم الثقافة فيما سبق .

مفهوم الحضارة فى اللغة :

جاء فى لسان العرب :-

[فلان من أهل الحاضرة ، وفلان من أهل البادية ، وفلان حضرى ، وفلان بدوى .

والحضارة . الإقامة فى الحضر . عن أبى زيد . وكان الأصمعى يقول . الحضارة بالفتح قال القطامى (١) .

فمن تكن الحضارة أعجبته **** فأى رجال بادية ترانا

(١) هو عمير بن شميم من بنى تغلب له كثير من الأشعار فى شتى مجالات الشعر . تاريخ اللغة العربية جـ١ صـ ٣٠٠ .

الحاضرة خلاف البادية . وهى المدن والقرى والريف . سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار وساكن الديار التى يكون لهم بها قرار] (١) .

وفى المعجم الوسيط : [حضر فلان حضارة أقام فى الحضر . و - عن فلان : قام مكانه فى الحضور .

- الحضارة - الإقامة الحضر . و - مظاهر الرقى العلمى . والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر (مو) (٢) .

ويطلق رمز - مو - للمولد . وهو اللفظ الذى استعمله الناس بعد عصر الرواية . وفى المعاجم الأخرى تجد الكلمة تدور حوال هذا المعنى .

خلاصة ما جاء فى المعاجم عن مفهوم الحضارة :-

باستعراض مادة الحضارة فى المعاجم يظهر أن الحضارة فى اللغة العربية تعنى الإقامة فى الحضر . أى فى المدن والقرى . ولم تستعمل بمعنى مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى إلا حديثاً .

وأن الأصل فى المعنى هو الاستقرار . وهو الطريق الذى يفتح للأفراد والمجتمعات أبواب التطور والتقدم فى اكتساب شتى الفنون والحذق فى تحصيل ألوان المعرفة وبناء المدن والأمصار . وتنظيم الإدارة والحكم ... الخ .

مفهوم الحضارة فى الاصطلاح :-

نشأت هذه الكلمة أول الأمر بسيطة . كانت تعنى حياة أهل الحضر المستقرة على ضفاف الأنهار النضّاحة بالنعيم . أو على العيون والآبار . وما

---

(١) لسان العرب . ابن منظور جـ٥ صـ ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢) المعجم الوسيط جـ ١ صـ ١٨١ .

تتسم به هذه الإقامة من رقى مادى ومعنوى فى الأخلاق والعادات . والطباع والعقائد ، ووسائل الحياة المختلفة من عمرانية وسياسية وأخلاقية .

والمعروف أن حياة الحواضر حياة مستقرة تساعد على ازدهار العلم والمعرفة وتعين على إنشاء العمران . لذا كانت كل هذه العوامل هى عناصر الحضارة] (١) .

وكان العلامة عبد الرحمن بن خلدون . ٧٣٣ هـ - ٨٠٨ هـ من أبرز من تناولوا لفظ الحضارة بالشرح والتفصيل بأسلوب علمى فقال عن الحضارة :- (هى أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران . زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه ، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر . أو هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه) (٢) .

أى أنها (ذلك النمط من الحياة المستقرة الذى يقتضى فنوناً من العيش والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وتوطيد حياة الدعة وأسباب الرفاهية) (٣) .

اتساع مفهوم الحضارة بعد ابن خلدون . وتطوره بتطور الحياة البشرية :-

حاز ابن خلدون قصب السبق فى تحليله لمفهوم الحضارة على هذا النحو العلمى - باعتبار الحضارة غاية العمران - إلا أن مفهوم الحضارة كغيره

(١) قيم حضارية فى القرآن الكريم . توفيق محمد سبع جـ ١ صـ ٢٠ طـ دار المنار بمصر ١٩٨٤ م .

(٢) مقدمة ابن خلدون صـ ٢٣٣ ، ٢٣٥ .

(٣) قيم حضارية فى القرآن الكريم . توفيق سبع جـ ١ صـ ٢٨ - ٢٩ .

من المفاهيم البشرية – يخضع لسنة التطور . فقد اتسع مدلوله حتى امتد إلى كثير من المعانى التى لم توجد فى العصور السابقة . ولم يشر إليها العلامة ابن خلدون . فأصبحت تدل على – [ما يستتبع الإقامة فى الحضر من تعاون وتآزر وتبادل للأفكار والمعلومات فى شتى شئون الحياة من علوم وعمران وثقافة وعرفان وما إلى ذلك مما يتصل بتقدم الإنسان وترقيه فى مناحى الحياة المختلفة . وذلك أن اجتماع الناس فى مكان وقرارهم به . إنما يكون للتعاون على دفع الضرورة وتحصيل أسباب المعاش بالزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم المختلفة والترقى بها فى مدارج الحياة ومسالكها حتى تصل إلى الغاية التى تواتيها بها أحوالها وإمكانياتها المختلفة] (١) .

كيف اكتسب مفهوم الحضارة هذا المدلول الجديد :-

هذا المدلول الجديد لكلمة حضارة والذى يتمثل فى مجموعة القيم والأنماط التى تتحكم فى توجيه النشاط الروحى والمادى للمجتمع قد اكتسبته الكلمة فى اللغة العربية فى العصر الحديث [عن طريق الترجمة . وعن طريق التأثر بفكرة الدراسة الحضارية . كما هى عند الأوربيين . فإن كلمة حضارة بمعناها العلمى ترجمة للكلمة الأوربية كلتشر – بمدلولها العلمى الذى أصبح لهذه الكلمة الأوربية فى العصر الحديث . كما أن كلمة كلتشر – فى اللغات الأوربية لم تكتسب ذلك المعنى العلمى إلا بعد أن ظهرت الدراسات الإنسانية التى تهتم بالمجتمع من حيث هو وحدة متكاملة .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى . د / أبو زيد شلبى صـ ٧ طـ ٧ ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م . مكتبة وهبه .

فى صورته الكلية . وما تتآلف منه هذه الصورة من قيم وسنن وأنماط نظرية وعملية) (١) .

حتى قال أهل الخبرة والاختصاص : الحضارة [هى نتاج الإنسان المدنى الاجتماعى بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية تحقيقاً لأهداف أمته وما ارتضته هذه الأمة لنفسها من قيم ومُثُل ومبادئ] (٢) .

ونستخلص من هذا التعريف شيئين :-

١ - الحضارة هى طريقة الحياة التى ارتضتها الأمة لنفسها فى جميع المجالات الروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية والمادية المنبعثة من قيم معينة ومُثُل محدودة .

٢ - للحضارة جانبان :-

الأول :- مظاهر الرقى المادى . الذى يشمل جميع جوانب الحياة من صناعة وتجارة وزراعة واختراع وفنون .

الثانى :- مظاهر الرقى المعنوى الذى يتصل بالقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكرى والإبداع الأدبى .

وبناءً على هذا التعريف والاستخلاص أقول :-

إن الحضارة لا تكون ذات طابع إنسانى لدى الحضريين حتى تتصف بالرقى المادى والمعنوى على حد سواء . ذلك لأن الحضارة لا تقاس بالتقدم

---

(١) دراسات فى الحضارة الإسلامية . د / أحمد إبراهيم الشريف صـ ١٣ دار الفكر العربى بالكويت دون تاريخ .

(٢) معالم الحضارة فى الإسلام د / عبد الله ناصح علوان صـ ٧ ط ٢ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

العلمي أو الصناعي إلا بمقدار ما يكون ذلك تعبيراً عن مقاصد إنسانية صالحة . وتجسيداً لمبادئ خلقية فاضلة .

وبعد • فهل الحضارة هي الثقافة أو مغايرة لهما ؟ .

تعددت آراء العلماء والباحثين حول تحديد العلاقة بينهما على النحو التالي :-

الاتجاه الأول :-

هذا الاتجاه يرى أن العلاقة بين الثقافة والحضارة هي علاقة تلازم ، بمعنى أنه إذا ذُكرَت الثقافة ، تتضمن الحضارة . وإذا ذُكرت الحضارة . تتضمن الثقافة . فلا انفصال في المفهوم أو المضمون لأنهما يتعاونان في تشكيل ما يحيا به أو فيه الإنسان .

ومما يؤكد علاقة التلازم بينهما . هو أن [المظاهر المادية والمعنوية تتضافر جميعاً في إنشاء النظم الاجتماعية التي تعد الثقافة قلبها النابض ولبناتها الأساسية . أضف إلى ذلك : أن أحداً لا يستطيع أن يتجاهل ذلك التجاوب الملحوظ . والتفاعل الدائم بين الأمور المعنوية والمادية في المجتمع . ثم إن الحضارة . هي التطبيق المادي للتراث الثقافي . وهي من ناحية أخرى وليدة هذا التراث في البيئة التي تقوم فيها . ثم إنها كذلك المرآة التي تعكس مقومات ثقافة المجتمع وخصائصها العامة] (١) .

فإذا كانت الحضارة هي المظهر المادي للثقافة . فإن الثقافة هي المظهر العقلي للحضارة وإذا كانت الحضارة تترجم الثقافة . فتدل على الثقافة دلالة تبقى على الزمن . فالثقافة تترجم هذه الحضارة المادية إلى مذهب عام في

(١) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية د / محمود الخالدي جـ ١ صـ ٥٧ .

السلوك . يعكس القيم المختلفة فى الحياة العقلية والوجدانية والأخلاقية جميعاً . فالحضارة والثقافة إذاً متكاملتان متلازمتان (١) .

بينهما صلة وشيجة قوية يمكن أن تكون كصلة الولد بوالده . أو النبات بتربته . أو الأثر بمؤثره . أو كما يقول أحد الباحثين . [الثقافة فى مهمتها التاريخية تقوم بالنسبة للحضارة بوظيفة الدم بالنسبة للكائن الحى . فالدم ينقل الكرات البيضاء والحمراء التى تصون الحيوية والتوازن فى الكائن الحى وتكون جهاز مقاومته الذاتية] (٢) .

الاتجاه الثانى :-

هذا الاتجاه يرى أن الثقافة والحضارة تعبيران مترادفان يدلان على معنى واحد . هو جملة ما فى المجتمع من أوجه النشاط والأفكار . والمعتقدات . والنظم .

أى أن مدلوليهما يشملان :-

[أسلوب الحياة فى الأمة أو الجماعة كلها بجميع مظاهره . فهو ينصب على الكيفية التى يمارس الناس بها وجوه النشاط المختلفة فى البيئة التى يعيشون فيها . (٣) .

كما قال بعض الباحثين :-

[إن كل ما نستطيع الوصول إليه . هو أن كلمتى - الحضارة والثقافة - تدلان على مجموع ما خلفته الأمة من آثار حضارية وفكرية وفنيه وأدبية فى

---

(١) عن الثقافة . د / عبد المنعم الصاوى صـ ٣٥ .

(٢) مشكلة الثقافة . مالك بن نبى صـ ١٠٤ .

(٣) المجتمع العربى د / صوفى أبو طالب . صـ ١٦٨ طـ دار النهضة العربية بالقاهرة ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م

جميع المجالات المادية والمعنوية] (١) .

إذاً فاللفظان يشكلان وحدة متكاملة مترابطة لا يستغنى فيها جزء عن جزء . وأىُّ محاولة للتفريق بين هذين اللفظين هى تفرقة غير دقيقة [ولا تقوم على أساس متين . إذْ من المعروف أن ثمة تبادلاً مشتركاً بين العناصر المادية والعناصر الروحية التى تسود جماعة من الجماعات ... فطرق المعيشة . ووسائل الانتقال . والنظم الاقتصادية .. الخ تتأثر قطعاً بما يسود الجماعة من آراء ومعتقدات . وهذه بدورها تتأثر بما يحدث من تطور فى العناصر المادية السائدة .

يضاف إلى ذلك . أن ثمة تشابكاً . وتضامناً بين مختلف هذه العناصر . مما يصعب معه أحياناً التفرقة بين ما هو روحى . وما هو مادى .

فالثقافة والحضارة إذاً مترادفان علميان] (٢) .

ويؤكد الدكتور / عبد الحليم عويس الترادف وعدم الفروق أو التعارض بين الثقافة والحضارة والمدنية بقوله :- وحتى بين الثقافة والحضارة والمدنية فإننا نرجح أنه لا يوجد أدنى تعارض .

لأننا نعتبرها جميعاً مظهر الرقى الإنسانى ودليل مستواه . وكل ما يغذى رقى الحياة من روافد . هو ثقافة وحضارة ومدنية . وكل ما يعارضها هو جهل وتخلف . حتى ولو تلفح بأردية براقة تستر ما وراءها من فكر أو سلوك يتسم بضحالة لا تليق بإنسانية الإنسان وسموه الفكرى والروحى] (٣) .

---

(١) مبادئ الثقافة الإسلامية د / محمد فاروق النبهان صـ ١٣ نقلاً عن نظرات فى الثقافة الإسلامية د / محفوظ على عزام صـ ٢٢ .

(٢) أسس علم الاجتماع . د / حسن شحاته سعفان صـ ٨١ طـ ٣ سنة ١٩٥٧ م .

(٣) ثقافة المسلم / د . عبد الحليم عويس صـ ١٨ .

الاتجاه الثالث :-

إذا كان الاتجاه الثانى يرى أن الثقافة والحضارة مترادفان فى كل الأمور مادية كانت أو معنوية . فإن الاتجاه الثالث يرى أنهما مترادفان معنوياً فقط . أى من جهة التعريف . أو من جهة التفكير فى مشكلة قد تواجه كلا من اللفظيْن . أما الجوانب المادية فهى ليست من مكوناتهما وإنما هى ناتجة عنهما . أى أن الثقافة والحضارة أفكار وينتج عن هذه الأفكار ما نعيشه من ماديات . أو أنهما عقائد وشعور ووجدان . وما ينتج عنهما من سلوكيات مادية تكون مغايرة لهذه المبادئ ويمثل هذا الاتجاه الأستاذ / مالك بن نبى . (١) حيث يقول :-

« إن كل تفكير فى مشكلة الحضارة هو فى جوهره تفكير فى مشكلة الثقافة - ثم يقول - وبذلك تكون الحضارة فى جوهرها . عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة ويكون مصير الإنسان رهنا بثقافته » (٢) .

ويؤكد باحث آخر على المساواة والترادف بين الثقافة والحضارة فى الأمور المعنوية بقوله - [إن الحضارة والثقافة مسميان لشيئ واحد والجانب المادى للثقافة أو الحضارة هو المدنية ويضرب الأمثلة لتوضيح كلامه فيقول : [فهذا الكتاب الذى نقرأه الآن يحمل جانبيْن أساسيْين حضارياً . أو ثقافياً . وجانباً مدنياً . فالحضارة أو الثقافة فى هذا الكتاب تتمثل فيما يحمله من أفكار واتجاهات وقيم . أما ما يحمله من مدنية فهو الورق من حيث هو خامة . والطباعة من حيث هى قيمة مادية معينة . ومن حيث إن هذا الكتاب

---

(١) راجع صفحة ٨٢ من هذا البحث .

(٢) مشكلات الحضارة عند مالك بنى نبى صـ ٩٨ وما بعدها .

هو سلعة تباع وتشترى] (١) .

الاتجاه الرابع :-

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الثقافة والحضارة تربطهما صلة قوية إلا أن الحضارة أعم وأشمل فى المضمون منه فى الثقافة ، وليس معنى أن الحضارة أعم وأشمل من الثقافة وجود فواصل بينهما فى المضمون حيث إن الثقافة عندهم مقصورة على الجانب الفكرى والروحى أو المعنوى من حياة الإنسان ، بينما الحضارة تشمل مع ذلك كله الجانب المادى العملى وممن يمثلون هذا الاتجاه الدكتور / محمد محمد حسين (٢) حيث يقول عن الحضارة :-

[وهى تطلق - الآن - اصطلاحاً على كل ما ينشئه الإنسان فى كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه عقلاً وخلقاً ، مادةً وروحاً ، دنياً وديناً . وهى بهذا المعنى الاصطلاحى أعم من الثقافة التى تطلق على الجانب الروحى أو الفكرى . بينما تشمل الحضارة على الجانبيْن : الروحى والمادى ، أو الفكرى والصناعى] (٣) .

وكذلك ساطع الحصرى (٤) يقول :- [إن مفهوم الحضارة يتصل بمفهوم

---

(١) الثقافة ومستقبل الشباب . يوسف ميخائيل أسعد صـ ١٠ ، صـ ١١ .

(٢) هو أستاذ الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية - رحمه الله تعالى - .

(٣) الإسلام والحضارة الغربية د / محمد حسين صـ٦ طـ٧ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٥ م .

(٤) ولد فى صنعاء من أبويْن حلبييْن فى ٥ / ٨ / ١٨٨٠ م . وتنقل منذ طفولته الأولى مع والديْه بين كثير من البلدان نظراً لظروف والده الوظيفية . تخرج من المدرسة الملكية باستنبول عام ١٩٠٠ م . وعمل بالتدريس وغيره من الوظائف الإدارية والقانونية وكان من أكبر دعاة القومية العربية - راجع ساطع الحصرى . د محمد عبد الرحمن برج . طـ سلسلة أعلام العرب ١٣٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الثقافة اتصالاً وثيقاً غير أنه يكون بطبيعته أوسع نطاقاً منه وأكثر شمولاً لأن الثقافة تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية وحدها . فى حين أن الحضارة تشمل الأمور المعنوية والوسائل المادية أيضاً . (١) .

ومن خلال هذا كله يتضح أن مفهوم الحضارة عام وشامل لكل مجالات الحياة المادية والمعنوية . وأن مفهوم الحضارة أعم وأشمل من مفهوم الثقافة من غير فواصل أو فرق بين المفهومَيْن .

الاتجاه الخامس :-

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن لفظ الثقافة أعم فى المفهوم من لفظ الحضارة . [حيث تشتمل الأولى على كل ما يتصل بالناحيتَيْن المادية والمعنوية ، على حين أن الحضارة يقصرونها على الناحية المادية فقط (٢) أى أن كل ثقافة حضارة وليس كل حضارة ثقافة . لأن الثقافة أعم والحضارة أخص .

إذاً : فمن العلماء من يقصر مفهوم الحضارة على الجوانب المادية فى حياة الإنسان .. أى ما يتعلق بوسائل معيشته وحياته ، وما يعده للحصول على طعامه وشرابه من أدوات ومعدات وآلات .

ولا علاقة للحضارة فى رأيهم بالنواحى النفسية والمعنوية والفكرية فى حياة الإنسان (٣) .

الاتجاه السادس :-

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الثقافة والحضارة مختلفان . لأن الثقافة

---

(١) الثقافة العربية وما يسمى ثقافة البحر المتوسط : ساطع الحصرى صـ ١٧٧ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية د / مصطفى أبو سمك صـ ١٣ .

(٣) المدخل للثقافة الإسلامية . د / يعقوب المليجى صـ ١٨ .

تتعلق بالجانب المعنوى . وهو يتمثل فى العقائد والأفكار والقيم والدوافع والرغبات . وكلها قوى نفسية كامنة فى النفس البشرية . وهى التى تميز الناس بعضهم عن بعض . ولا تقع تحت طائلة الحس أو اللمس . إلا أن الإنسان يعبر عنها بمظاهر محسوسة أو ملموسة . كفنون اللغة وآدابها . ويصعب انتقالها من جهة إلى أخرى كما يصعب محكاتها أو تقليدها .

أما الحضارة فهى بعكس ذلك كله .

وقد عبر أحد الباحثين عن الفرق بين الثقافة والحضارة بقوله :-

[إن الثقافة حياة ونشاط . طاقة وقيم . وأحاسيس فى بيئة بذاتها . بينما الحضارة وسائل وأدوات وآلات وفنون .

الأولى :- نزوع إلى طراز أو لون من الوجود .

الثانية :- وجود ملموس ومتحقق له مظاهره . وله مؤسساته وقواعده .

الأولى : فى حياة الفرد شعور وسلوك .

الثانية : أشياء تدور وسطها حياته . فالكتابة مثلاً ترتبط بالحضارة . لأنها وسيلة وأداة . بينما اللغة ثقافة تتمثل فى رموز وعلاقات وإشارات .

فالثقافة تنحصر بالأمور النظرية والمعنوية وحدها . وتظهر بأجلى مظاهرها فى الفنون والآداب وقواعد السلوك . فى حين أن الحضارة تشمل الأمور المادية . والمسائل المادية . وتتجلى بأحسن صورها فى العلوم والصناعات] (١) .

كما فرق بينهما - على أساس أن الأولى ذات طابع فردى - للأفراد والأمم - وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية . فى حين أن الحضارة ذات

---

(١) محاضرات فى المجتمع العربى . د / عز الدين فوده صـ ١٧٢ ط دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٦١ م .

طابع اجتماعى ومادى (١) .

فالحضارة مادة . والثقافة فكر . والحضارة ملك للإنسانية كلها تأخذ منها ما تشاء . ولكن الثقافة خاصة بكل أمة . تستمد جذورها من وجدان الشعوب وضمائرها وأمزجتها . فكل ثقافة تمثل طابع أمتها . فهى أقرب ما تكون إلى الارتباط بالعقائد والقيم الأساسية للأمم] (٢) .

الاتجاه السابع :-

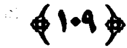
هذا الاتجاه يرى أن الثقافة تطلق على الأمور المادية . والحضارة تطلق على الأمور المعنوية . ومن ذلك القول . [إن الثقافة تطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات . والحضارة تطلق على اكتساب الخلال الحميدة وعلى المظاهر العقلية والأدبية] (٣) .

وقد أطلق المجمع اللغوى الحضارة على أنها جملة مظاهر الرقى العلمى التى تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع أو مجتمعات متشابهة (٤) .

هذه نماذج من الآراء التى تميز تمييزاً قاطعاً بين الثقافة والحضارة . وتفصل بينهما فصلاً تاماً . وحجة هؤلاء . أن لفظتى . ثقافة وحضارة . مختلفتان فى الاشتقاق اللغوى وأن الثقافة ذاتية . سواء بالنسبة إلى الفرد أو الأمة . بينما تكون الحضارة عامة فعالم اليوم تتحكم فيه حضارة واحدة هى الحضارة الأوربية أو الغربية بصفة عامة . بينما لا نستطيع القول بأن العالم اليوم تتحكم فيه ثقافة واحدة .

---

(١) المعجم الفلسفى صـ ٥٨ .
(٢) شبهات فى الفكر الإسلامى . أنور الجندى صـ ٨ ط دار الاعتصام ١٩٧٧ م .
(٣) مشكلات الحضارة عند مالك بن نبى . محمد عبد السلام الجفائرى صـ ١٠٣ .
(٤) المعجم الفلسفى صـ ٧٣ .



إذاً لكل أمة ثقافتها . فهناك إذاً حضارة واحدة وثقافات متعددة (١) .

الترجيح :-

وهكذا تتعدد آراء الباحثين حول العلاقة بين الثقافة والحضارة . مما قد يثير حول هذيْن المصطلحيْن نوعاً من الغموض والإبهام .

والرأى الأقرب إلى الصواب - كما أرى - هو الرأى الذى يوفق بين المصطلحيْن ويجعلهما مترادفيْن . أو متساوييْن فى كل الأمور . لأن التفريق بينهما لا يقبله الواقع المحسوس الذى لا يقبل فصل الجانب المادى عن الجانب المعنوى . أو فصل الروح عن الجسد .

كما أن الواقع يؤيد القول بتضامن الجوانب المادية مع الجوانب المعنوية . مما يصعب معه التفرقة بين ما هو مادى وما هو معنوى .

كما أن الفصل بين الثقافة والحضارة لا يتفق وطبيعة الحياة البشرية . التى تمثل وحدة واحدة تتكون من أمور تتكامل فيما بينهما مادةً ومعنى وجسداً وروحاً . عملياً ونظرياً . وكلها تعبير عن نشاط الإنسان . ونشاط الإنسان حلقة متصلة لا انفصال فيها . [وحين نتكلم عن الإنسان لا نقصد ناحيته الروحية . أو جانبه المادى فحسب . بل كلا الجانبيْن معا نعتبر الإنسان وحدة واحدة لا تتجزأ . فكذلك النشاط الإنسانى الذى هو نتاج هذه الوحدة . نشاط موحد . لا يمكن أن نميز فيه بين نواحى مادية . وأخرى روحية . إلا إذا كان هذا التمييز من باب التجاوز عن الحقيقة الواقعية . أو لسهولة التعبير فحسب . إذ أنه فى الواقع لا يوجد أى جانب من جوانب نشاط الإنسان وفاعليته يخلو من نواحى روحية او مادية . لأنه تعبير عن الوحدة الدائمة -

---

(١) نظرات فى الثقافة الاسلامية د / محفوظ على عزام . صـ ٢٤

الوحدة الإنسانية (١) .

ومن العلماء المؤيدين لهذا الرأى الأستاذ الدكتور / مصطفى أبو سمك (٢) . إذ يقول بعد عرضه لآراء الباحثين حول المصطلحين :-

ونحن نميل إلى . الرأى القائل باتفاق ومطابقة مفهوم الثقافة لمفهوم الحضارة ليطلق كل من المصطلحين على تراث أية أمة وحاضر أى مجتمع فى شتى المجالات ومختلف أنشطة الحياة .

هذا . ومما يوضح أو يؤكد صحة ما نميل إليه هنا ونرجحه :

قوة التلازم وشدة الارتباط بين الأمور المعنوية والمادية .

فالاختراعات المادية قبل أن تظهر إلى حيز الوجود كانت أفكاراً ونظريات فى عقول المخترعين .

كما أن المشاعر والتصورات من عالم المعنويات . لا يكون لها قيمة ما لم تملأ الفراغ النفسى والخواء الروحى فى الإنسان من جهة . وما لم يكن لها آثار تساهم فى صلاح البناء الواقعى من جهة أخرى .

---

(١) ثقافة أساسية د / ماهر كامل ود / أمين عبد الله صالح جـ ١ صـ ١٩ طـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ م

(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية د / مصطفى أبو سمك صـ ١٤ .

الثقافة والمدنية

من الألفاظ شديدة الصلة بالثقافة :- المدنية - ولكى تحدد العلاقة بينهما لا بد من الرجوع إلى الاشتقاق اللغوى لمعرفة مدى أصالة اللفظة فى اللغة العربية وكيف تطورت إلى أن أصبحت تستعمل فيما هى عليه الآن .

وقد مر بحث لفظ الثقافة .

مفهوم المدنية :- المدنية كلمة مستحدثة لا وجود لها فى المعاجم القديمة . ومع أنها غير موجودة فى المعاجم القديمة إلا أنها قياسية . لأنها مصدر صناعى كحرية وديمقراطية] (١) .

ومصطلح - تمدن - لم ينتشر إلا حديثاً أسوة بمصطلح المدنية .

وقد جاء فى المعجم الوسيط - المدنية - هى الحضارة واتساع العمران (٢) .

وعرف لفظ تمدن - عاش عيشة أهل المدن - وأخذ بأسباب الحضارة - مو - (٣) ورمز - مو - بمعنى مولدة لم ترد فى المعاجم القديمة . وإنما هى استعمال معاصر . وقد استعمل حكماء القدماء لفظة - مدنى - بمعنى اجتماعى . وفى هذا يقول العلامة ابن خلدون :-

- ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم . الإنسان مدنى بالطبع أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم وهو معنى العمران (٤) .

ولم يستمر استعمال لفظ مدنى أو مدنية فى العصر الحديث علي ما كان

(١) قيم حضارية فى القرآن الكريم . توفيق سبع جـ ١ صـ ٣٨ .
(٢) المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٨٥٩ .
(٣) السابق .
(٤) مقدمة ابن خلدون صـ ٣٧ .

عليه في البيئة العربية القديمة . أو في عصر ابن خلدون . بل تطور هذا اللفظ حتى أصبح يعنى (التعبير عن مستلزمات حياة المدينة . وما يكون فيها من أشياء ومظاهر مادية لا توجد فى البادية كالشوارع والمساكن المنظمة والمرافق اللازمة . والأدوات الراقية المناسبة لحياة المدينة والتجمع البشرى الذى يكون فيها . وسهولة جلب ما ييسر أمور الحياة بها . إلى غير ذلك من مظاهر الحياة المادية التى لا يمكن توفرها عادة فى البادية] (١) .

أو هى [الرقى فى العلوم العملية التجريبية كالطب والهندسة والكيمياء والزراعة والصناعة والاختراع الآلى . وسمى الرقى فى هذه العلوم مدنية . لارتباط الرقى فيها بالمدينة والاستقرار إذ لا بد للطب من مستشفيات ولا بد للهندسة من معامل . ولا بد للزراعة من تجارب وهكذا] (٢) .

علاقة الثقافة بالمدنية

تعددت وجهات نظر الباحثين والعلماء حول علاقة الثقافة بالمدنية كما تعددت حول علاقة الثقافة بالحضارة . ويمكن إجمال وجهات نظر العلماء فى هذا الموضوع على النحو التالى .

الاتجاه الأول :-

القائلون بأن العلاقة بين الثقافة والمدنية . هى التلازم . أى أن [المدنية تعنى هذه العناصر المستمدة من الثقافة . والتى تناولها الإنسان بالتهذيب والتفكير وحوّلها إلى وسائل لتحقيق غايات ملموسة واضحة . ولذلك . فإنها تشمل الأدوات والوسائل التى صنعها الإنسان للسيطرة علي المظاهر

---

(١) الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء د / عبد المنعم النمر صـ ٢٩ .

(٢) الفكر الإسلامى منابعه وآثاره / أحمد شلبى صـ ١٥ .

الطبيعية والتحكم فى ظروف حياته وتيسير هذه الحياة والنهوض بمستواها . ووسائل تنظيم علاقات الناس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على أسس علمية] (١) .

فعلى هذا نجد أن الثقافة هى أساس المدنية والمدنية . مظهر للثقافة . فهناك تلازم وترابط بين اللفظيْن إذ الثقافة لا تزكوا إلا فى العمران ولا تؤتى ثمارها إلا فى المدينة .

الاتجاه الثانى :-

أصحاب هذا الاتجاه يرون أن العلاقة بين الثقافة والمدنية وإن كانت علاقة تلازم وترابط إلا أن الثقافة جزء من المدنية . أى أن المدنية أعم من الثقافة . ومما قيل فى هذا - [مصطلح المدنية وإن كان يعنى مصطلح الثقافة أيضاً إلا أن المدنية تحتوى على سمات ثقافية يقيمها العالم كله ويتفق جميع الناس عليها ويستهدفون تحقيقها مثل الرخاء الاقتصادي والصناعات العصرية وارتفاع مقدار كل من الجدارة والفاعلية الإنتاجية لمختلف أجهزة الدولة وذيوع مكارم الأخلاق وأشرف المعاملات وغير ذلك . مما تنص عليه معظم التعاليم الدينية في كافة أرجاء العالم . ولذلك فكل مدنية . ثقافة وليست كل ثقافة مدنية] (٢) .

الاتجاه الثالث :-

هذا الاتجاه يرى أن العلاقة بين الثقافة والمدنية . هي التغاير . ففرقوا بين الجانب الفكرى المعنوى . وخصوه باسم الثقافة وبين المجالات المادية

---

(١) التربية والتغيير الثقافى . د / محمد الهادى عفيفى صـ ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) المفتتح فى علم الاجتماع . د / محمد نبيل جامع صـ ١١٦ طـ ١٩٧٥ م . الإسكندرية .

النفعية التى تخدم الأغراض العملية المباشرة فآثروا أن يسموها مدنية - (١) .

وعلى ذلك فالمدنية يمكن اشتراك جميع الناس فى ممارستها والانتفاع بها دون مشاركتهم للأفراد الذين اخترعوا عناصرها فى قيمهم وأفكارهم ومبادئهم أو عقائدهم . وهذا بخلاف الثقافة فهى ترتبط بمبادئ وقيم وأفكار وعقائد يصعب انتقالها من مجتمع إلى مجتمع . أوْ منْ بيئة إلى أخرى إذ هى تعمل على تشكيل معالم الشخصية الذاتية لكل مجتمع من المجتمعات . كما أن - المدنية يسهل انتقالها واقتباسها واستعارتها من مجتمع إلى آخر على خلاف انتقال العناصر المعنوية واقتباسها . فقد أدى نمو وسائل الاتصال والانتقال الحديثة إلى انتشار الكثير من عناصر المدنية من مكان إلى آخر فى العالم . غير أن انتشار مظاهر مدنية من المدنيات إلى باقى المجتمعات لا يعنى اختفاء الاختلافات الثقافية بين هذه المجتمعات حيث إنه ليس من السهولة على المجتمع أن يترك ثقافته التى تعبر عن شخصيته العامة (٢) .

كما أن المدنية - قد تتغير وتترقى باستمرار حسبما يصل إليه العقل الإنسانى من اختراع صناعات مادية غير أننى أرى - أن هذا التمايز بين الثقافة والمدنية لا يؤدى إلى تغايرهما أو الفصل التام بينهما . على اعتبار أن كلاً منهما مجالاً مستقلاً عن الآخر لأنه لا يمكن أن يتصور ثقافة بدون مدنية . أو مدنية بدون ثقافة . لأن الثقافة دون مدنية لا يمكن تصويرها

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية . د / نادية شريف العمرى صـ ١٦ .

(٢) التربية والتغيير الثقافى . د / محمد عبد الهادى عفيفى صـ ٦٤ ، ٦٥ .

للواقع المحسوس . كما لا يمكن إخراج مدنية للواقع المحسوس دون فكر وتأمل فطرى إذاً فالجانب العملى والجانب النظرى يعملان متعاونيْن على الرقى الإنسانى - مادياً ومعنوياً .

الخلاصة :-

بعد بيان مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية . وبيان العلاقة بهم - أرى - أن أى خلاف بين هذه المفاهيم . هو خلاف نظرى فقط . فقد تختلف هذه المفاهيم من حيث اللفظ أو الاشتقاق اللغوى . أما من حيث المعنى الحقيقى فلا أرى . أى خلاف بينها لأن أى أمر نظرى أو معنوى لا قيمة له إلا بترجمته عملياً . دون إفراط أو تفريط . كما أن أى أمر عملى لا أساس له ولا قيمة إلا إذا كان له مصدر معنوى أو نظرى كالدافع النفسى أو الرغبة أو التفكير ... الخ .

فإذا كانت الثقافة تطلق على الجوانب النظرية المعنوية دون العملية التطبيقية - على رأى القائلين بذلك - فكيف يمكن التعرف أو الاستفادة من هذه الأمور النظرية المعنوية ؟؟ .

وإذا كانت المدنية هى الأمور المادية فقط - على رأى القائلين بذلك - فكيف تحيا هذه الأمور أو تستمر دون فكر أو أخلاق وهما أساس حياتها ؟؟

وإذا كانت الحضارة تجمع بين الأمور المادية . والأمور المعنوية . فأى فرق بينها وبين كل من الثقافة والمدنية . ما دام كل منها يشتمل على الأمور المادية العملية والمعنوية النظرية ؟؟ إذاً لا فارق بين هذه المصطلحات الثلاثة ويؤيد هذا الاستنتاج الدكتور عبد الحليم عويس (١) حيث يقول .

---

(١) ثقافة المسلم صـ ١٨ .

وحتى بين الثقافة والحضارة والمدنية فإننا نرجح أنه لا يوجد أدنى تعارض . لأننا نعتبرها جميعاً مظهراً للرقى الإنسانى . ودليل مستواه . وكل ما فى الحياة من روافد هو ثقافة وحضارة ومدنية وكل ما يعارضها هو جهل وتخلف حتى ولو تفلح بأردية براقة تستر ما وراءها من فكر أو سلوك يتسم بضحالة لا تليق بإنسانية الإنسان وسموه الفكرى والروحى .

الثقافة والنهضة

من الألفاظ التى تتصل بالثقافة . لفظ – النهضة – ولكى تظهر هذه الصلة لا بد من الرجوع إلى الاشتقاق اللغوى . فلفظ – النهضة – مأخوذ من الفعل الثلاثى [نهض : قام – وبابه قطع وخضع] (١) .

وفى المعجم الوسيط . [نهض – نهضاً – ونهوضاً . قام يقظاً نشيطاً . ويقال : نهض من مكانه إلى كذا – تحرك . و – له . قام . وتحرك إليه مسرعاً . والنهضة . الطاقة والقوة و – الوثبة فى سبيل التقدم الاجتماعى أو غيره – محدثة – والنهاض : الدءوب على أن يسلك سبيل التقدم والكثير النهوض] . (٢) فالنهضة على هذا لها دلالتان :-

١) دلالة حسية مادية . وهى ما تدل عليه من القيام والحركة .

٢) دلالة معنوية . وهى ما تدل عليه من الدفع نحو التقدم والرقى الاجتماعى وغيره .

وقد أطلق العلماء والباحثون . النهضة على الرفعة والتقدم والرقى فى شتى مجالات الحياة الإنسانية فقالوا :-

---

(١) مختار الصحاح . الرازى صـ ٦٨٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٩٥٨ .

أ) إن النهضة إرتقاء إلى أعلى . إرتقاء لوجودنا السياسى والإنسانى والاقتصادى والأدبى والعقلى ... الخ .

ب) وهى فى كافة أنحائها تحرير دائب مستمر . ففى السياسة . تحرير من العدوان والخوف . وفى الاقتصاد تحرير من الاستغلال والحاجة . وفى العقل . تحرير من الجهل والكبت .

جـ) وهى ثراء عام مطلق . ثراء فى الأخلاق . وثراء فى المعرفة . وثراء فى الإنتاج] (١)

د) [وهى ثراء وقوة وثقافة وصحة وشباب] (٢) .

هـ) إنها نهج عام للحياة تشعره روح الجماعة كلها . ويتسم مع حقها الطبيعى فى الحياة والحرية والرخاء والعلم والسلام] (٣) .

وعلى هذا تكون النهضة أعظم من الحضارة والمدنية والثقافة . إذْ هى تطلق على كل هذا .

وزيادة على ذلك أشياء منها :

[الكفاح ضد الظلم وضد العبودية وضد الذل والكسل والهوان .

ولهذا كثر استعمال مصطلح النهضة عند تحرير الشعوب . واسترداد الأوطان وبعث الحريات . لإرجاع الأمم إلى شخصيتها وبعثها من رقادها لتأخذ بأسباب القوة والمنع والتقدم والحرية] (٤) .

---

(١) تاريخ التربية والتعليم . د / سعد مرسى أحمد صـ ٣٧٥ .

(٢) ما هى النهضة . سلامة موسى صـ ٥ ط١ مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٢ م .

(٣) تاريخ التربية والتعليم . د / سعد مرسى أحمد صـ ٣٧٥ .

(٤) الحضارة الإسلامية . د / توفيق يوسف الواعى صـ ٣٩ .

الثقافة والعلم

من الألفاظ ذات الصلة بلفظ الثقافة - العلم - ولكى تتحدد صلة الثقافة بالعلم لا بد من معرفة الاشتقاق اللغوى .

مفهوم العلم فى اللغة :-

يقال : علم الرجل علماً إذا حصلت له حقيقة العلم . وعلم الشيئ . عرفه . وفى التنزيل العزيز - لا تعلمونهم الله يعلمهم (١) و - الشيئ وبه . شعر به ودرى . وفى التنزيل العزيز قال [يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى] (٢) - و - الشيئ حاصلاً . أيقن به وصدقه . فهو عالم - (٣) جـ - علماء (٤) .

وفى القديم كانوا يطلقون لفظ العلم على كل معرفة مهما كان نوعها . ولا يفرقون بين العلوم والمعارف . ثم أخذ يتحدد معنى العلم بمعارف معينة . ومعنى الثقافة بمعارف خاصة . وصار للعلم معنى اصطلاحى . وللثقافة معنى اصطلاحى . غير معناهما اللغوى .

مفهوم العلم فى الاصطلاح :-

العلم اصطلاحاً . هو المعرفة التى تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج كعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وسائر العلوم التجريبية (٥) .

على أن هذا التعريف للعلم يحصره فى العلوم العملية فقط . ويستبعد من مجال العلم ما يعتنقه الناس من مبادئ وقيم وأفكار ومعتقدات .

---

(١) سورة الأنفال [٦٠] .

(٢) سورة يس [٢٦] .

(٣) حرف - ج - يرمز به فى المعجم الوسيط إلى الجمع . أى كلمة عالم تجمع - علماء .

(٤) المعجم الوسيط جـ٢ صـ ٦٢٤ .

(٥) الثقافة والثقافة الإسلامية . سميح عاطف الزين صـ ٣١ .

وفى المعجم الفلسفى – العلم بوجه عام : المعرفة وإدراك الشيئ على ما هو عليه . وبوجه خاص دراسة ذات موضوع محدد . وطريقة ثابته . توصل إلى طائفة من المبادئ والقوانين وينصب على القضايا الكلية والحقائق العامة المستمدة من الوقائع والجزئيات (١) .

وعلى هذا يكون العلم كل نشاط نظرى أو عملى ينصرف إلى محاولة تفسير وفهم موضوعات معينة ومحددة بطرق منظمه ومرتبة .

علاقة الثقافة بالعلم :-

أولاً : علاقة الاتفاق :-

يمكن أن يقال : إن العلم نوع من الثقافة – لأنه ينحصر فى فهم أو تحليل موضوعات معينة بطرق معينة .

أما الثقافة فهى تشمل كل موضوعات الحياة البشرية والكونية نظرية أو عملية مادية أو معنوية بشتى الطرق والوسائل . [وقد قال روستان : العلم شرط ضرورى فى الثقافة ولكنه ليس شرطاً كافياً . إنما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التى أكسبنا إياها العلم] (٢) .

وبهذا تكون الثقافة متفقة مع العلم فى مفهومه إلا أنها أعم منه . وذلك :-

١) لأن العلم جزء من النشاط البشرى بوصفه جهداً يبذله الإنسان وهو يتفاعل مع سائر أنواع النشاط الإنسانى فى نطاق الثقافة السائدة كلها .

٢) كما يظهر بين الثقافة والعلم . التأثير والتأثر .

أ : العلم بكل وسائله . وطرقه ونتائجه يؤثر فى الحياة ككل . فهو يشكلها

---

(١) المعجم الفلسفى صـ ١٢٣ ط مجمع اللغة العربية ١٩٨٣ م .

(٢) المعجم الفلسفى . د / جميل صليبا جـ ١ صـ ٣٧٨ طـ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨٢ م .

فى شكل جديد يقدم لها إمكانيات جديدة . ويجعلها أسهل : وأقرب إلى التناول . وأقدر على مواجهة ظروف البيئة ، لأنه يختصر الجهد والوقت معاً . (١) .

وإذا كان العلم يؤثر فى الثقافة . فهذا يكون من وجهيْن

الأول :- اعتماد الثقافة على المبتكرات والمكتشفات العلمية فى حياتها العملية اليومية كأدوات الطباعة والتصوير : ووسائل الإعلام والاتصال المتعددة .

الثانى :- تأثر الثقافة بعادات واتجاهات عقلية ترتبط بالنظرة العلمية .

ومن أبرز الأدلة على ذلك : ما حدث فى العالم الغربى من ثورات صناعية وتكنولوجية أثرت فى المسيحية . مما أدى إلى ظهور نوع من الفكر الفلسفى قائم على تقديس العلم والعقل .

وما حدث فى العالم الإسلامى من تأثر وتبعية للغرب . إثر الحملات العسكرية الغربية على الشرق فى مقدمتها حملة نابليون بونابرت على مصر .

أو كما يقول برونسكى : يغير العلم من القيم الإنسانية عن طريقين :-

الأولى : عندما يغرس أفكاراً جديدة فى ثقافتنا المألوفة .

الثانية : عندما يعرض الثقافة لعوامل الضغط الناتجة عن التحولات التكنولوجية التى تؤدى بدورها إلى تعديل فى الثقافة . (٢) .

ب : - وإذا كان العلم يؤثر فى الثقافة . فإنه يتأثر بالثقافة .

---

(١) عن الثقافة . د / عبد المنعم الصاوى صـ ٢٧ .

(٢) الموضوعية فى العلوم الإنسانية د / صلاح قنصوة ط ٢ دار التنوير بيروت لبنان ١٩٨٤ م . صـ ١٦ ، ١٧ .

لأن الثقافة هى الرحم الذى يتصل فيه العلم بأسباب الحياة . كما أن النظم الثقافية هى الروافد الرئيسية .

أو هى - المنابع الأصلية التى بهاإما أن يتفجر نهر العلم أو تجف مياهه. وبواعث الاشتغال بالعلم ليست مستمدة جميعاً من ذات نفسه لأنه لا يعمل وحده . فى فراغ . بل هو يفلح أرضاً مهدتها الثقافة السائدة من قبل . أو تركتها صعيداً زلقاً - فهو يعمل كما يقول - جون ديوى - (١) فى نطاق حالة نظامية ثقافية تستوعب كافة الشئون التى قد استقرت فى المرحلة السابقة على تطور العلم نفسه . فحالة الثقافة السائدة يمكن أن تكون عقبة تحول دون صياغة الفروض التى تؤدى مباشرة إلى توجيه ملحوظات وتجارب معينة تدور حول وقائع قد حددت تحديداً يجعل منها علماً . فالعادات والمعايير الثقافية تؤثر فى تحديد الاتجاهات العقلية ومن بينها العلم بطبيعة الحال (٢) .

ويتبين من ذلك أن العلم يتأثر بثقافة مجتمعه وعصره وقيمها .

وإذا كان له تطوره العقلى الخاص .. فإن هذا التطور نفسه تدعو إليه أيضاً عوامل ثقافية خارجة عنه ..

ونخلص من هذا . إلى أن الثقافة وكل ما تتضمنه .

---

(١) هو فيلسوف أمريكى وجد فى الفترة ١٨٥٩ - ١٩٥٢ م له كثير من التأثير فى الشئون العلمية والعملية - الموسوعه الفلسفية المختصر ترجمة فؤاد كامل وآخرين صـ ١٤٧ طـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٢ م .

(٢) فلسفة العلم د / صلاح قنصوة صـ ٧٢ ، ٧٣ .

شرط لقيام العلم ونتيجته فى آن واحد .

فهى شرط لأنها هى التى تمنح العلم صورته الخاصة فى هذا العصر أو ذاك . وتنتقى له أساليبه وإجراءاته وأدواته وتبرز طابعه من حيث غلبة الكم أو الكيف وتزوده بمشكلاته التى يبحث لها عن حلول وتطرح عليه مسائل تقع عليه تبعة الإجابة عليها . ولا يتيسر ذلك إلا لأن المعانى ودلالات الحوادث تختلف باختلاف الجماعات الثقافية ونظمها . كما أنها الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالمهارات والعادات المكتسبة والمعرفة المتراكمة . ثم هى الوسيلة الوحيدة لنقل هذه الأمور كلها جميعاً إلى الأجيال التالية لتعود بدورها شرطاً لقيام معرفة جديدة ووسطاً مواتياً لاكتسابها .

والثقافة أيضا نتيجة للعلم لأنها تأخذ من العلم نظرته الجديدة ومنهجه وتفيد من نتائجه فى ابتكار أدوات جديدة تغير من أسلوب الحياة .

والذى يعنينا من ذلك كله . أن العلم نظام ثقافى تبعث على مزوالة نشاطه . قيم ثقافية معينة . هى التى تتجلى فيما ينبغى أن يكون عليه البحث العلمى فى ذلك الزمان المعين والمكان المعلوم . فكأن هناك خطة خفية مؤسسة على تقويم التوسع المنشود فى المعرفة العلمية بحيث يتحقق لتلك المعرفة الوحدة والشمول والاطراد والاستمرار (١) .

٣) كما يظهر بين الثقافة والعلم التكامل والترابط .

أى أن الثقافة والعلم كل منهما يكمل الآخر . كما يرتبطان برباط واحد . ألا وهو الكيان الإنسانى . [فالإنسان على ضوء ثقافته . يختار لنفسه الأهداف . ثم يلجأ إلى ما لديه من علم ليحقق تلك الأهداف . فالعلم هو

---

(١) فلسفة العلم . د / صلاح قنصوة صـ ٩٣ .

الذى يرسم الخطوات الموصلة إلى الهدف وأما اختيار الهدف فى ذاته فلا شأن للعلم به .

فقد تجد قوماً يختارون لأنفسهم أن تقام الصناعة على ملكية الأفرد -كما فى النظام الرأسمالى - كما تجد قوماً آخرين اختاروا لصناعتهم أن تقام على ملكية الجماعة - كما فى النظام الاشتراكى أو الشيوعى - وإلى هنا لا شأن للعلم بما اختاره أولئك أو هؤلاء . ثم يأتى العلم بعد ذلك ليحقق لكل قوم هدفهم المختار .

فالعلم شأنه أن يحلل ما بين يديه . لكنه لا يفاضل ولا يختار .

على حين أن الثقافة - بوجهة نظرها - لا تكاد تعرف التحليل . لأنها وجدان وذوق .

يعرف كيف يفاضل ويختار .

ولذا فكل حركات التغيير والتطوير أو الاصلاح إنما تنبثق من الثقافة ولا تنبثق من العلم لأن تلك الحركات ما هى إلا رغبة فى تغيير حالة لتصبح على صورة أخرى غير صورتها الراهنة . والرغبة تنبع من الجانب الوجدانى فى الإنسان . وأما العلم فهو وسيلتها إلى التحقيق (١) .

وعلى هذا يمكن القول إن العلم وسيلة والثقافة غاية .

لأنها الحالة الوحيدة التى تُؤَمِّن للذهن نوعاً من التوازن والصفاء . وتكفل تهذيب الشخصية الإنسانية والسير بها إلى أقصى درجات الكمال الممكن .

---

(١) هموم المثقفين . د / زكى نجيب محمود صـ ٢٠٢ بتصرف طـ ٢ دار الشروق ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م .

من مواطن الإختلاف بين الثقافة والعلم

ومع أن الثقافة والعلم قد يقتربان من بعضهما فى المفهوم إلا أن من العلماء من يرى ضرورة التمييز بينهما . لاختلافهما عن بعضهما . حتى بالغ بعض المفكرين فى تصوير الاختلاف والتعارض بين الثقافة والعلم . وكأن ثمة متناقضين لا سبيل إلى عبور الهوة بينهما أحدهما . علمى . وآخر أدبى . أو تقليدى . وذلك على النحو الذى أعلنه / تشارل سنو .

فهناك فى رأيه نقيضان مستقطبان . نجد فى أحدهما أصحاب الفكر الأدبى . أى المشتغلين بالإنسانيات الذين يشيرون إلى أنفسهم دائماً على أنهم أهل الفكر . وفى القطب الآخر العلماء . وخاصة علماء الطبيعة . وبين الطائفتيْن أخدود عميق من افتقاد التفاهم (١) .

كما يلح – مالك بن نبى – على ضرورة التمييز بين الثقافة والعلم . ويحذر من الخلط الشائع فى تصورهما والتعبير عنهما (٢) .

لأنه يرى أن الثقافة ليست علماً يتعلمه الإنسان . ولكنه محيط يعيش فيه . وإطار يتحرك داخله . وهو الذي يغذى الحضارة . وتتكون خصائص المجتمع المتحضر وفقاً للأهداف العليا التى رسمها المجتمع لنفسه .

وهى بمعنى آخر : الجسر الذى يعبره الناس إلى الرقى . وهى أيضاً الحاجز الذى يحفظ من السقوط (٣) وأن الثقافة تعنى استخدام جميع

---

(١) الموضوعية فى العلوم الإنسانية د / صلاح قنصوة صـ ١٨ ، ١٩ .

(٢) مشكلات الحضارة عند مالك بن نبى : محمد عبد السلام الجفائرى صـ ١١١ .

(٣) المصدر السابق صـ ١١٨

ملكاتنا الضميرية والعقلية فى عالم الأشخاص (١) .

ولكن العلم - مجرد جهد تبذله عقولنا حين تستخدم فى عالم الأشياء .

فالأولى تحركنا وتقحمنا كلية فى موضعها . وأما الثانى . فإنه يقحمنا فى مجاله جزئياً .

والأولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنسانى . والثانى . يخلق علاقات بيننا وبين نظام الأشياء (٢) .

كما يضيف مفكرآخر .

لا ليس العلم هو الثقافة . فالعلم مقيد بالواقع . وأما الثقافة فهى أقرب إلى المعيار الذى نهتدى به إلى ما ينبغى أن يكون . ومن هنا لا تتضخم فى ساحة العلم قيم الخير والشر أو الجمال والقبح . وأما الثقافة فمعنية بتلك القيم من رأسها إلى قدميها . العلم عقل . والثقافة ذوق . العلم منهج يقام على مبادئ المنطق . والثقافة دفعات وجدان (٣) .

ويرى القائلون باختلاف العلم عن الثقافة مواطن الاختلاف بينهما فى :-

١ - إن العلم عالمى . والثقافة محلية :-

فالعلم الذى يأتى نتيجة للتجارب الصادقة والنظر الصحيح هو نتاج لكل البشر . ولا تختص به جماعة عن جماعة . وليس لأمة بذاتها .

وإنما هو للإنسانية . فلا يوجد علم خاص بالمسلمين أو العرب . وآخر خاص بالإنجليز .

(١) ميلاد مجتمع . مالك بن نبى صـ ١٢٢ الطبعة الأولى ١٩٦٢ م . مكتبة دار العروبة بالقاهرة .

(٢) السابق . صـ ١٢٣ .

(٣) هموم المثقفين د / زكى نجيب محمود صـ ٢٠١ .

ولا توجد هندسة أمريكية وأخرى فرنسية . أو طب ألمانى . وآخر إيطالى ، فالعلم لا وطن له . كما أن المكتشفات العلمية تنتقل من مكان لآخر دون أن تحتاج إلى تحرير أو تكييف .لأنها بمثابة ثروة بشرية عامة ، ولذا كثيراً ما يوجد علماء من شتى الأمم ومختلف الجنسيات يشاركون ويجتمعون ليتعاونوا فى الاكتشافات والاختراعات العلمية .

أما الثقافة فهى غير ذلك تماماً . إذْ هى خاصة بالأمة التى تنتجها . ولا تنسب إلا إليها . [وقد تكون ثقافة أى أمة ضرباً من الأساطير والخرافات . أو تكون فى أحسن صورها تعبيراً عن خصائص أمتها وظروفها . لا تصلح لغيرها . بل ربما كانت أفسد الأشياء لهذا الغير] (١) .

- إذاً - فلكل أمة استقلالها الثقافى عن الثقافات الأجنبية تستمد ثقافتها من كيانها ومواريثها وإيمانها . ومن أمجادها واتجاهاتها (٢) .

وعلى هذا يصح القول :إن هذه ثقافة إسلامية أو عربية . أو أدبية . أو أمريكية ... الخ فتنسب إلى البيئة التى أنتجتها .

٢ - العلم رأسى . والثقافة أفقية - [أو العلم اختصاصى والثقافة موسوعية] .

إن العلم يبحث عن حقائق الأشياء .. واستغلال الإنسان لها . وهو لا يستقصى إتساع آفاق الحياة البشرية فى اتجاه أفقى . وإنما يتعمق فى بحث موضوع . ويركز فيه تركيزاً عقلياً وذهنياً . فى اتجاه رأسى . عله يصل إلى حقيقة جديدة - يضيفها إلى المعرفة

---

(١) الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام د / عبد الستار فتح الله سعيد صـ ٢٣ .
(٢) أصالة الفكر العربى الإسلامى . أنور الجندى صـ ٥٤ .

الإنسانية عامة . (١) ولذلك يغلب على العلم طابع التخصص .

حتى أصبح من أكبر سمات البحث العلمى المعاصر - التخصص الدقيق - بل لم يعد يكتفى بالتخصص فى علم واحد فحسب . بل أصبح التخصص يرد على أحد فروع العلم - فعلم التاريخ - مثلاً - قد ينقسم إلى تاريخ قديم . ومتوسط . وحديث . وإسلامى . وأندلسى . وأوربى . وحضارات . وكذلك الشأن فى سائر العلوم النظرية والعملية . وقد أدت مسألة التخصص العلمى الدقيق إلى أن . المتخصصين فى مختلف فروع العلوم تقتصر معارفهم غالباً على ما تخصصوا فيه . وقل أن تجد من بينهم من يحيط بثقافة عامة بجانب تخصصه . هكذا يكون المهندس . أو الطبيب . أو الكيميائى . قد لا يعرف أيهم إلا علمه وتخصصه . ولهذا آثاره الضارة من حيث ضعف الروابط التى تربط بين المتخصص وبين المجتمع الذى يعيش فيه . والعجز عن فهم مشاكل البيئة والناس (٢) .

لأن التركيز عليها يؤدى إلى آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار . كما يؤدى إلى تضخم دور بعض الفروع والجزئيات .

الأمر الذى يقتل الإبدا ع ، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان .

ويوقع فى التقليد . ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين . سواء أكان ذلك بالتعامل مع التراث . أم بالقدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهة حاجات العصر المتجددة - وليس معنى ذلك الدعوة إلى تسطيح

---

(١) محاضرات فى المجتمع العربى د / عز الدين فوده صـ ١٧١ .

(٢) المدخل للثقافة الإسلامية د / يعقوب المليجى صـ ٣٥ ، ٣٦ طـ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية . ١٩٨٥ م .

المعرفة العلمية وتمديدها فى عصر التخصصات الجزئية .

وإنما الذى نريد له أن يكون واضحاً . أن الكلام هنا فى مجال البيئة الثقافية وهى أمر آخر لا تشكل المعرفة العلمية الأكاديمية إلا حيزاً بسيطاً منه . - على ضرورته وأهميته - لذلك [نرى - أنه لا بد من ثقافة عامة . ونظرة شمولية . وعقل مرتب . متوازن . قادر على النظرة العامة . إلى جانب التخصص العلمي ببعض الجوانب] (١) .

وكثيراً ما تحتاج الحياة المعاصرة إلى هذا الطراز من المثقفين الذين لا يقتصرون على التخصص فى أنواع معينة من المعارف . بل يتجاوزونه إلى جميع متطلبات عصرهم .

وليس التخصص العلمي فى حد ذاته مشكلة - بل له أهميته الكبرى . لأنه يسمح لفئات معينة من الباحثين بالتعمق فى مجالات معينة من المعارف فيعينهم على اكتشاف لُبّ الحقائق . بدلاً من الوقوف عند الشكليات - بل المشكلة تكمن فى انقطاع الصلة أحياناً بين كثير من أصحاب التخصصات المتعددة . وعندما يستطيع الباحثون إزالة الفواصل التى تفصل وتباعد بين أرباب التخصصات المتعددة .

عندئذ يكون مفهوم المثقف لكى يقوم بدور المقرب والموفق الذى يجمع بين شتى التخصصات فى وحدة شاملة متكاملة .

من هذا يتبين أن العلم له موضوع أو موضوعات معينة تخدم هدفاً معيناً يبحث فيه العالم . بحيث يخرج من بحثه نتائج أو حقائق تفسر موضوع بحثه .

أما الثقافة فهى تبحث فى كل الأشياء بحثاً أفقياً موسوعياً . وهى فى

---

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم د / عماد الدين خليل صــ ١١ كتاب الأمة رقم ٤ .

هذا [تستند إلى المعرفة العامة واتساع الأفق . والقدرة على تنوق نواحى الإنتاج الفكرى والحسى للإنسان . وتنبع من أحاسيسه ووجدانه . وتتصل بضميره أكثر مما تتصل بالعقل . ومناهجه فى البحث العلمى المجرد ، ومن هنا كان اتصالها بمظاهرها الاجتماعية الخالصة من تقاليد وعقائد وعادات وآداب السلوك فى الحياة كالأخوة والتعاطف والتسامح ومبادئ الحرية والمساواة] (١) .

٣ - العلم - وخاصة التجريبى منه - لا يهتم بالنواحى القيمية أو الأخلاقية بقدر ما يهتم بالنواحى التحليلية أو التفسيرية . والثقافة عكس ذلك .

فلا مكان فى العلم لقضية تشتمل عباراتها على لفظة دالة على قيمة من القيم الأخلاقية . أو الجمالية . مهما بلغت أهمية هذه القيمة فى حياة الإنسان (٢) أما الثقافة فهى معنية بكل هذه القيم عناية بالغة . لأنها تهتم بالنواحى الأخلاقية بقدر ما تهتم بالنواحى التحليلية - بل أكثر - وعلى هذا فقد يصل الإنسان إلى ذروة العلم - أى علم - من حيث تحصيل المعلومات عن هذا العلم أو ذاك . ومن حيث وصوله ببحثه العقلى العلمى إلى علم أو اختراع جديد . وهذا الإنسان عالم فى علمه - بلا شك - وفى الذروة منه ومع ذلك قد يكون إنساناً متفسخاً فى خلقه . وتصرفاته . وصلاته بالناس . فيقال عنه : إنه غير مثقف . وغير متحضر وإن كان عالماً - فالعلم وحده

(١) محاضرات فى المجتمع العربى د / عز الدين فودة صـ ١٧٠ دار الفكر العربى ١٩٦١ م .

(٢) هموم المثقفين : زكى نجيب محمود ٢٠١ بتصرف .

مـجـرد علم . ليس ثقـافة . وليس تهـذيبـاً . ولا حـضـارة . ولا يدل على أن صـاحـبه مـثقف ولا مـتحـضـر ولا مـهـذب . بل ربما يكون جناية عليـه وعلى مجتمعه (١) .

نفس الشيئ بالنسبة للأقوام والمجتمعات !!!

[فـقـد يصل قـوم إلى ذروة العلم يكدسـونه تكديسـاً . أو يـخـتـرعـون به اخـتـراعـات ويضـيـفـون إليـه بعـقليـاتهم كل يوم شـيـئـاً جـديداً منه . ولكنهم ليـسـوا على قـدر من التـهـذيب النفسي والخلقي أو الحـضـاري أو الثـقـافي ، بل يمكن أن يكون العلم أحـيـانـاً وسـيلة تدمـيـر للأمـة وأخـلاقـهـا وإضـعـاف المعنى الجـمـيل في الإنسـان . الذي يكون به إنسـانـاً حـقـاً . كمـا نرى انسـيـاق الناس والدول وراء العلم ومـسـتـحـدثاته مما قـد يودي بهم ويهلكهم (٢) .

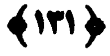
وبعد . فإني أرى أنه مع هذه الفوارق والاختلافات بين الثقافة والعلم – فإنهما يشتركان في الهدف والغاية إلى حد ما . والخلاف بينهما صوري وهو في الدرجة لا في النوع .

فـإذا كـان العلم يقـدم للإنسـان المواد الأوليـة في هذه الحـيـاة . فـإن الثقافة هي التي تعين أسلوب استثمار تلك المواد لخدمة مطالب الإنسـان . أي أنهـا هـي التي ترسم الخطة التي يزاول بهـا الإنسـان مـهـمـتـه في حياته فكراً وسلوكاً .

---

(١) الثقـافـة الإسـلامـيـة بين الغزو والاسـتـغـزاء . د / عـبـد المنعم النمر صـ ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) المصدر السابق صـ ٣١ .



المثقف والعالم

الشخص المثقف . هو ذلك الشخص الذى يعرف شيئاً من كل شيئ فيكون لديه إحاطة أفقية موسوعية بكل جوانب الثقافة والمعرفة . حسب طاقاته واستطاعته .

أما العالم فهو ذلك الشخص الذى يعرف كل شيئ عن الشيئ الواحد . أى معرفة رأسية متعمقة .

وعلى هذا فقد يكون الشخص مثقفاً غير متخصص ،. إذا كانت عنده المعرفة العامة فى أمور شتى وكثير من فروع المعرفة ديناً ودنياً . نظرياً وعملياً . وذلك مثل الرازى وابن سينا وكتب كل منهما فى كل جوانب المعرفة النظرية أو العملية وتعمق فى بعض الفروع تعمقاً رأسياً قوياً .

وقد يكون الشخص عالماً غير مثقف . وذلك إذا برع فى فرع من فروع المعرفة عالماً به . ولكنه مع ذلك بعيد عن سواه . وشتان بين الرجل العالم والمثقف .

- كما أن الشخص العالم - قد يكون عنده إلمام بالمشكلة كفكرة - غير أنه لا يجد فى نفسه الدوافع التى يتصورها كعمل . فى حين أن الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعاً بالمبدأ الأخلاقى الذى يكون أساس ثقافته إلى عمليتيْن . عملية هى مجرد علم . وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل (١) .

فالأول قد حصل على أشتات من المعارف . ثم تعمق فى ناحية واحدة آثرها على غيرها فأخذ يمعن فى دراستها ويستقصى تفاصيلها الدقيقة حتى ضاق أفق تفكيره لاقتصره على ناحية اختصاصه . وأهمل كل ما عداها مما يتعلق بالثقافة العامة التى تتحدد وتتسع حيناً بعد حين .

---

(١) تأملات . مالك بن نبى صـ ١٤٥ طـ دار الفكر دمشق ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

أما المثقف فهو الذى ألم بالمعارف المختلفة وما زال كذلك كلما واتته الفرصة حتي حصف فكره . وفصح لسانه . وعذب حديثه . وتسامت روحه إلى آفاق المعارف الإنسانية . وأقبلت نفسه المتعطشة إلي المعرفة على نتائج العقول وفيض القرائح فاستمدت منها كل ما يهذبها ويثقفها فغدت بذلك كله معيناً لا ينضب من المعرفة الإنسانية وينبوعاً يفيض بالخير والنفع والعطاء .

الثقافة والمعرفة

كلمة المعرفة من الكلمات التي تقترن بالثقافة فى الاستعمال الشائع -

والمعرفة تعني الإدراك بحاسة من الحواس . و إدراك الشيئ بتفكر وتدبر لأثره . وهى مأخوذة من الفعل الثلاثي - عرف الشيئ عرفاناً ومعرفة : أدركه بحاسة من حواسه . فهو عارف وعريف .. (١) .

وفى المعجم الفلسفى - المعرفة ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مذركة وموضوع مدرك .

وتتميز باقى معطيات الشعور من حيث إنها تقوم فى آن واحد على التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين . وهى التى تنتفى فيها الواسطة بين الذات العارفة والموضوع المعروف كالحدس والإلهام (٢) اللذين لا يتوسط فيهما الحس (٣) .

---

(١) المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٥٩٥ .

(٢) الحدس هو المقدرة على فهم الحقيقة مباشرة دون استدلال منطقى تمهيدى - الموسوعة الفلسفية صـ ١٧٧ - والإلهام هو توفيق الله للكائن الحى للصواب بالحق .

(٣) المعجم الفلسفى . مجمع اللغة العربية صـ ١٨٧ .



أو هى المعلومات العامة المنوعة المتعارف عليها فى كل الثقافات (١) .

- أو هى القدرة على الملاحظة والمقارنة والتفكير والكشف عن ظواهر الطبيعة فى الكون وعن ظواهر الحياة الاجتماعية . أو هى القدرة على التفكير بوجه عام (٢) .

من هذا كله - أرى - أن المعرفة يستطيع كل عاقل أن يتبينها . فهى لا تأتى كخواطر ولا إلهامات . وإنما هى جهد منظم وإعمال للعقل والفكر بين ضدين : كالخير والشر . وترجيح الأفضل والأنفع منهما ...

والمعرفة فى الإسلام لها طريقان - هما العقل والقلب معاً . ويقيم مفاهيمه على أساس ترابط الروح والمادة . والدنيا والآخرة . وهو لا يقر مفهوم العقل وحده . فالعقل لا يستطيع أن يحكم فى كل القضايا . كما لا يقر مفهوم القلب وحده فإن قضايا المجتمع الإسلامى جماع بين عالمى الغيب والشهادة (٣) .

والثقافة ليست معارف فقط . ولكنها . موقف . واتجاه . وعواطف . وعادات . تقوم على العقيدة والقيم (٤) . وهى غذاء وجدانى وإمتاع فكرى محبب يسعى إليه الإنسان ولا يساق إليه قسراً أو كرها (٥) .

وبالتالى فالمعرفة أخص من الثقافة . والثقافة تشكلها وفقاً لمبادئها وعقائها وقيمها ومثُلُها العليا .

---

(١) أهداف التغريب . أنور الجندى صـ ١٢٧ .

(٢) ثقافة الطفل العربى : جمال أبو رية صـ ١٢ طـ دار المعارف بمصر .

(٣) شبهات في الفكر الإسلامي / أنور الجندى صـ ٤٤ .

(٤) أهداف التغريب . أنور الجندى صـ ١٢٧ .

(٥) ثقافة الطفل العربى . جمال أبو رية صـ ١٢ .

وهناك فرق بين الثقافة والمعرفة .

فالمعرفة عامة لا تختص بأمة دون أمة . ولكل إنسان أن يدلى فيها بدلوه . أو أن يستفيد من معرفة الآخرين .

أما الثقافة فهى خاصة . ولكل أمة ثقافتها تستمدها من مقوماتها وعقائها وأخلاقها وقيمها ومبادئها .

وهذا التفريق بين الثقافة والمعرفة لا بد منه . وهو بمثابة دفاع ضد محاولات تمييع الشخصية الإسلامية وتذويبها فى الشخصيات الأخرى بإلغاء الفوارق بين الثقافات والمعارف والعلوم تحت شعار وحدة الثقافة العالمية .

الثقافة والنظم

النظم جمع نظام . والنظام هو . وضع الأشياء أو الأفكار على صورة مرتبه (١) أو هو ما اصطلح عليه المجتمع من أوضاع ذات مبادئ وأصول لتنظيم ما يسود حياتهم من علاقات فى كل شئونهم أفراداً ومجتمعين الكل يلتزم بها ويخضع لها . ومن يخالفها يعرض نفسه للمسألة والعقاب .

والنظم تتنوع بتنوع ما توضع له . فهناك نظام اجتماعى ينظم المجتمع . ونظام اقتصادى ينظم الاقتصاد . ونظام سياسى ينظم شئون الدولة ... الخ .

وترتبط النظم بالثقافة ارتباطاً وثيقاً . إذ هى تجسد الثقافة . وتجعل لها كياناً فى دنيا الواقع المحسوس .

---

(١) المعجم الفلسفى صـ ٢٠١ .

فالمبادئ التى تنظم المجتمع ثقافة . تحتاج لما يخرجها للواقع . فيكون النظام الاجتماعى هو الكفيل بها .

والمبادئ التى وضعت فى مجال العلوم التجريبية كاكتشاف مرض معين أو نوع جديد من الزراعة مثلاً يُعَدُّ ثقافة - تحتاج لما يخرجها للواقع فيكون المؤسسات والنظم العلاجية والزراعية .

وكذلك سائر المبادئ والاكتشافات التى تحتاج لما يخرجها للواقع المحسوس .

الثقافة والدعوة

وردت كلمة - الدعوة - فى القرآن الكريم والسنة الشريفة . وفى المعاجم اللغوية بمعان كثيرة من أهمها :-

النداء والطلب والحث والصيحة ، والسوق إلى ، والتجمع للمشاركة فى شيئ ما .

وهى بهذا تعنى : كل المحاولات التى يبذلها الداعية لإقناع المدعو واستمالته نحو أمر ما . حتى يقف المدعو من المدعو إليه موقفاً إيجابياً أو موقفاً سلبياً فيضحى فى سبيله . أو يصد عنه .

وبهذا أرى أنه مفهوم الدعوة بشكل عام يتقارب مع مفهوم الثقافة .

إلا أن مفهوم الدعوة يتميز عن مفهوم الثقافة بتضمنه إثارة المدعو نحو الداعية والمدعو إليه - إقناعاً واستمالة - أما الثقافة فليس فيها تلك الإثارة .

إذاً فكل دعوة ثقافة وليست كل ثقافة دعوة .

وكل داعية مثقف . وليس كل مثقف داعية .

وذلك لأن الداعية مثقف يستطيع إثارة الغير إقناعاً واستمالة . فى حين لا يستطيع المثقف ذلك !! .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين .

أ.د/ سعيد الصاوى .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٦٢٩٩
مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا
أمام فرع جامعة الأزهر
أول طريق سبرباى كفر الشيخ